المشروع

رواية

حسين عيد

الطبعة الاولى ١٩٨٧.

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٨٧



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

العنوان
العراق - بغداد اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

كان (ص) منكفئا على مكتبه ، تحت قمع المصباح الضوئي المعلق ، وسط العديد من المراجع المفتوحة واوراق البحث . أسند رأسه بيده ، محاولا ان يستجمع شتات فكره ، وان يركزه في بؤرة معينة .. تناول رشفة من فنجان القهوة .. أطفأ سيجارته في الطفاية المتخمة ببقايا السجائر . أسقط نظارته على أرنبة أنفه . نقل نظراته من اوراق البحث الى المراجع المجاورة .. « لماذا توقفت خطوط البحث عند هذه النقطة بالذات ؟ .. يجب ان تتواصل الخطوط وتترابط ، لقد اخذت العينات المطلوبة ، وفحصت المناطق المصابه تحت المجهر ، واستخرجت الجراثيم وعزلتها ، وقمت بالتحضين عليها في بيئات خاصة على اساس افتراضات اولية ، ثم حاولت التعرف عليها ، وأيها تسبب اصابة النبات .. رجعت خلال هذه الفترة الى مراجع عديدة وحاولت الاستفادة من خبراتي الماضية .. لكن ثمة هاجس داخلي يؤرقني .. ثمة شئ ما ينقصني ، لم آخذه في الاعتبار .. شئ ما لم آخذه في الاعتبار .. »

اقتحم مدير المركز خلوته .. كانت الحجرة تعبق بطبقات كثيفة من الدخان تلاقت نظراتهما حملق (ص) الى جسده الضخم الممتلئ ، الذي يسد الباب . حاول ان يتعرفه بلا جدوى . حكّ جبهته بشدة « لماذا توقفت الخطوط عند هذه النقطة بالذات ؟ .. كانت الافكار ـ قبلها تتوالد ببساطة ، لتقود الى استنتاج افضل اساليب مقاومة العفن الابيض في البصل ، لأسجل التوصيات ، ويكتمل برنامج الوقاية .. » .

تحرك القادم خطوتين للداخل . قال : مساءالخير :

شاهد (ص) وراءه جزءاً من مائدة المعمل الطويلة ، الممتدة في عمق الحجرة قال : مساء الخير .. مشى متثاقلا عدة خطوات . ارتمى على كرسي مرهقا . شعر بالخدر ينساب الى ساقيه . أراح ذراعه على المائدة الطويلة . رأى

بجواره صفا من انابيب الاختبار المغلقة ، مصفوفة على حامل خشبي . ربت على المراجع القريبة منه عدة مرات .. « كم اضناني هذا البحث .. كم من الكتب قرأت ، كم من العينات اخذت ، كم من التجارب اجريت .. وانتظرت شهورا طويلة اتابع تطوره ، واتتبع نتائجه ، حتى اصبح بكل جزئياته ودقائقه – جزءاً من كياني .. فقط لو تنفك الآن عقدة الخطوط المتشابكة ، وتنفرج الازمة ..

التفت الى المدير : هل حدث شيء .. أم ..

لحظة صمت ثم اكمل : فتفكيري كله معلّق بالبحث ..

جلس المدير على كرسي قريب : هناك عمل آخر ينبغي ان تباشره ..

– انني ما زلت اعمل .. لم ينته المشروع بعد .. –

انه مشروع آخر .. أرى ان تباشره بنفسك .

أخرج علبة سجائره المستوردة . قدم له احداها . ومضت ولاعته الذهبية فور انعكاس الضوء عليها ، وهو يشعل له سيجارته . أشعل اخرى لنفسه . اخيرا قال : لقد فكرت فيك ، لتفانيك في عملك ، وكفاءتك العالية ..

فكر (ص) « واين تاهت هذه الكفاءة ، عندما تجاوزتني في البعثات والترقيات وابقيت القسم دون رئيس – بعد خروج الرئيس السابق للمعاش – رغم اقدميتي ، واعترافك الحالي بكفاءتي ؟ ..

قال مستفزا : لقد قضيت في هذا البحث شهورا طويلة .. فلماذا تريدني أن اتوقف الان ؟

– انه مشروع آخر مع مؤسسة اجنبية ،سيحقق لك مصالح عديدة ..

تطلع (ص) اليه . بدا له بقعة سوداء مفرطحة بلا حدود . قال بهدوء : الموقف صعب .. فالبحث في مرحلته النهائية .. كنت احلم ان انجزه خلال أيام ..

– ومن قال انك لن تفعل ؟ .. (مبتسما) ستقوم بهذا العمل ، بالاضافة

الى عملك الطبيعي ..

أطال (ص) النظر الى مكتبه ، حيث تربض اوراق البحث . جذب شعرة نافرة من شعرة ، كعادتـه اذا ما استغـرقه التفكـير .. ردد دون وعي : لكني .. انني لا استطيع ..

رفع المدير يده . جذب نفسا من سيجارته : انت لا تعرف مايوفره لك العمل مع هذه المؤسسة .. ستكون هناك سيارة او اكثر تحت تصرفـك ، تنقلك الى أي مكان تريد ، بدلا من مواصلاتنا العادية ـ المسموح بها طبقا للوائح العمل ـ في القطارات والاتوبيسات .. واذا اردت اجهزة معملية أو كيماويات أو مراجع أو أي متطلبات اخرى للمشروع .. يمكنك شراؤها مباشرة من حسابهم ، دون التقيد بروتين عملنا اليومي وهل هناك اعتماد للصرف ام لا ؟ .. واخيرا ـ وهذا مهم ـ ستتقاضى مرتبا شهريا ضخما ، بخلاف بدلات السفر للمأموريات ، وربما تحظى بسفرة سنوية للخارج ..

كان (ص) يتصفح احد المراجع المجاورة ، وهو ينصت له ، فجأة تواردت على مخيلته صورتا زوجته وابيه المريض ، ولا يدري لم رآهما يبتسمان ..

نظر الى المدير . حاول ان يعترض . اوقف الرجل اندفاع كلماته قائلا : لو كانوا أي مؤسسة اخرى ما اهتممت .. كما انني اثق انك سترتاح الى التعامل معهم ..

نهض المدير .. استند الى باب الحجرة . ، بينمابدى خلفه جزء من الممر ذي الضوء الباهت ..

أحس (ص) ببعض الحرج إزاء الحاح المدير ، فقال : اذن دعني افكر بالامر ..

ـ عموما سيأتي مندوب المؤسسة غدا .. وآمل ان تكون قد توصلت الى قرار ..

استطرد بعد لحظة : وامل ان يكون بالايجاب .. لصالحك طبعا ..

ثم كمن تذكر : على فكرة سأوصلك اليوم الى منزلك .. فلا تشغل بالك بأمر العودة ..

رفع (ص) حاجبيه دهشة لهذا التطور المفاجئ ، وتمتم شاكرا عدة مرات لكن المدير كان قد توارى في الممر ..

همس (ص) لزوجته : اريد ان احدثك قليلا ..

تـدخلت سلوى ـ اصغر اطفـاله ـ التي كانت تعتـلي ركبتيه : ولـماذا لاتحدثني أنا يابابا ؟

ضحك (ص) . انا لااستطيع الاستغناء عنك ياحبيبتي ..

كان قد انهى عشاءه،نهضت زوجته تحمل اطباق الطعام . إنزلقت سلوى الى الارض ، تساعد امها في افراغ مائدة الطعام وتنظيفها .

اغتسل (ص) . غاص في احدى كراسي المدخل. وضعت الزوجة امامه كوب الشاي الساخن . راح يدخن بهدوء وهو يتناول رشفات متباعدة منه ..كان لقاء المدير ما زال يمسك بخناقه ، احس نفسه متوترا ، قلقا ، فجأة تداعت الى خيـاله زيارة الامس لابيـه المـريض .. رآه طريـح الفـراش ، يتنفس بصعوبة ، تبعثرت علب الدواء على مائدة صغيرة قرب السرير .. بينما اطل عدد آخر من اعلى الدولاب .. كان جمع الابناء حـاضرا حـول السريـر .. الاصغر الذي نجح بمجموع ضعيف في الثانوية العـامة ، والثـاني الذي يدرس بكلية العلوم ، وكريم المهندس الذي يعمل بالسعودية منذ سنوات ، وانا الاخ الاكبر ، بينما كانت همهمات اصوات الاخوات تصلنا عبر الصالة من حجرة البنات ..

قالت الام : كان يجب ان تبقى بجوار ابيك فترة اطول .

نظر كريم اليّ ، انا الاخ الاكبر ، هل كان يستنجد بي أم يطلب مني شيئا لاأدريه ؟ ..

قـال : انت تعرفـين انني جئت في زيارة قصيـرة .. وهـا هي قـاربت

الانتهاء ..

عندئذ فتح الاب عينيه . تطلع الى المحيطين به . توقفت نظراته على كريم الحمد لله ان جئت ورأيتك .

ـ ولكنني مضطر للسفر يا أبي .

ـ ابق قليلا ..

ـ لقد انتهت اجازتي .. وسأراك في اجازتي القادمة باذن الله .

ـ ومن يضمن الاعمار ياولدي ؟ ..

اغمض العجوز عينيه ثانية . ورحل كريم ـ القادر بيننا ـ في الصباح المبكر ، تاركا لنا مرارة العلقم ..

* * *

انتبه الى سلوى تقبله على خده الايسر : تصبح على خير يابابا

اومأ لها برأسه . تصبحين على خير ياحبيبتي ..

تحركت الى حجرة نوم الاطفال . جاءت الزوجة بعد لحظات في روبها المنزلي جلست الى جواره . تنفست الصعداء : اخيرا نامت .

ـ وماهي اخبار زكي وسالم ..

ـ انهيا واجباتهما المدرسية كالعادة وناما مبكرين .

مدد ساقيه . حكى لزوجته كل ماحدث بادق التفاصيل ، لم يغفل حتى أمر توصيل المدير له للبيت بسيارته ، وهو المشهور عنه الترفع عن التبسط مع الباحثين من مرؤوسيه ، بل ذكر لها ايضاً أمر إستفساره عن احواله وصحته ، كأنه صديق حميم .

قالت امرأته : انظر الى احوالنا .. مرتبك الان بعد انقطاع مرتبي لرعاية ابنتنا لايكفي مصاريف البيت والاولاد ..

تذكر رحلة كفاحه الطويلة خلال مراحل الدراسة المختلفة حتى الجامعة ، ثم عمله بالمركز ، ودراساته العليا ، وكيف انتهى به الامر الى تقبل حياته

الجديدة قانعا ، مع زوجته الموظفة بـراتبها المحـدود ، حتى رزقا بـزكي وسالم ،اللذين ربتهما حماته ، ثم جاءت سلوى ـ آخر العنقود ـ فاضطرت الزوجة بعد وفـاة امها ، ان تحصـل على اجـازة بدون مـرتب من عملها لرعايتها ، وعلى الجانب الآخر وقفت اسرته الاولى تنتظر اي عون ممكن ، وحينما سقط الاب صريع المرض ، وطالت فترة علاجه ، تزايدت المطالب وتجرعت معنى العجز ، وعندما حضر كريم اعتقدت انه الفرج ، لكنه آب الى قواعده البعيدة ، الحصينة ، مغلقا بصمت فاجع ..

سهم (ص) : انني لم أشكو أبدا .. احب عملي ، وأؤديه كما ينبغي .. لا أعرف مهنة اخرى بخلاف عملي كالآخرين .

ارتفع صوت الزوجه منذرا : اذن .. انظر جيدا .. هل يعجبك حالنا .. لقد ارسل الله هذه المؤسسة في الوقت المناسب لانقاذنا ..

كـان الآخرون «زمـلاء العمل» . من نفس درجتي الوظيفيـة او اقل ، ينـظرون الي من اعلى انـوفهم ، فهناك دخـل اضافي يحصلون عليـه من المشاريع او من مصادر اخرى ، لذا يشعرون انهم اعلى منزلة ، أما انا فكان العمل هو همي وخـلاصي كما آمنت دائمـا ، لكنه طبعـاً لايشبع المـطالب المتزايدة ..

عتب عليها : حالنا والحمد لله معقول .. احسن من غيرنا بكثير .

جاش صوتها بالغضب : انظر جيدا .. نحتاج كسوة ثقيلة للشتاء المقبل ويحتاج البيت الى الكثير ، فقد قَدُمَ الاثاث ويحتاج الى تغيير .. وتحتاج سيارة تناسب مركزك ..

قاطعها : انت تعرفين .. انا لااهتم بالشكليات ..

قاطعته هادرة : واحمل انا عبء تدبير كل شيء ، وحل مشكلات البيت .. أنت منعـزل في عملك ، لاتدري شيئـا عن مـوجـات الغـلاء المستمـرة ، ومصاريف مدارس الاولاد ..

قال (ص) : لنتمالك اعصابنا ونفكر بهدوء ..

ابتسمت الزوجه : وقبول هذا العرض ، هو بداية التفكير العاقل ..

كان يراقب تحولها بحذر : لكني لم أوافق بعد

استمرت كأنها لم تسمعه : وبموافقتك تكسب المدير الى صفك .. وهو الذي طالما وضع العراقيل في طريق ترقياتك ..

ـ أتظنين ؟

مدت الزوجة يدها للزوج تدعوه للنهوض . سارا سويا . أطفأت المصباح في طريقهما الى السرير . انبعث صوتها واثقا وسط الظلام : اطمئن .. بموافقتك تنصلح الاحوال .

كانت الغرفة الآن مظلمة تماما عدا بعض ومضات متباعدة لبعض لافتات النيون الاعلانية القريبة .. تمددت على السرير .. انتقلت الزوجة بخيالها الى الايام المقبلة ، راودتها احلام متوالية عن قضاء اسبوعين او اكثر بالاسكندرية ، كما تفعل كل زميلاتها ، وربما تتاح لها زيارة بورسعيد ، التي لم تزرها من قبل ، وتشتري ما ترغبه من سوقها الحرة وقد يبتسم الحظ فيغيرون اثاث الشقة ، ويعيدون طلاء الجدران ، ويغيرون الحمام ..

تقلبت الزوجة في سريرها .. وربما يشترون غسالة «فول اوتوماتيك» فينزاح عبُ الغسيل عن كاهلها ، وقد يشترون سيارة تيسر لها زيارات عائلية لاتؤديها ، وقد ...

أما هو ففكر ان الزوجة كانت محقة في رأيها بالنسبة لحياتهم ، فهي بالكاد تدبر امر معيشتهم ، وتوفر مصاريف تعليم الولدين في مدرستهما الاجنبية ، لكنها اسقطت ـ كعادتها ـ اسرته من حسابها .. اما هو فلا يستطيع ان يغفل فجذوره وعالمه يبدأون من هناك .. كان يقدم لهم دعما باهتا ، وهم ينتظرون منه ـ وهو الكبير ذو المركز العلمي ـ الكثير ، فاذا

اضيفت كارثة مرض الاب ، وجنوح الاخ القادر للسفر . لوجد انها جميعا عوامل حاصرته ، فابرزت عجزه في محيط حياته الضيق ، الذي لو لم يوجد فيه اكرم صالح رفيق عمله ، وعلي زكي صديق دراسته ، لانقطعت صلاته تماما بالاخرين ..

فهل جاء هذا العرض ليخرجه من عزلة عالمه التي اعتادها ، فيكون بذلك نقطة تحول في مسار حياته ؟ .

أغمض عينيه محاولا النوم ، ومشاهد حياته الماضية تتوالى امام ناظريه ..

* * *

قرب الفجر فاجأه حلم غريب ..

كان الطريق مفتوحا امامه . اندفع لاهثا . حلّ الظلام على المكان . ضاق الطريق . قاده الى مرتفع املس ، مائل ، بانحدار شديد ، بجواره مباشرة - الى اليسار - بدت هاوية واسعة ، سوداء ، عميقة ، بلاقرار ..

كيف يمكن صعود هذا المنحدر ؟

سمع صوت دقات قريبة . تتبع مصدر الصوت . بدا - بجواره الى اليمين - شبح رجل منحنى الجذع ، كمن يصعد . مشى ناحيته . حملق فيه بشدة . اكتشف فيه أباه وبجواره زميل الدراسة والعمل «علي زكي» . كان كل منهما يرتدي جلبابا ابيض اللون .

اهلا .. اهلا علي ..

ردا التحية . سأل (ص) أباه : كيف يمكنك ان تصعد هذا المنحدر ، وسط الظلام ؟

كان للاب ذقن نامية . افتر فمه عن ابتسامة . أبرز له ازميلا ومطرقة حديدية بيده . ربت على حقيبته القماشية ، المدلاة من رقبته . قال : انني اتسلق على الازاميل التي اثبتها في الصخر .. أدق اولا ، لاثبت واحدا

اتشبث به ، واضع آخر اعلاه ، ادق عليه لاثبته ، واتعلق به .. ثم انزع ماصعدت عليه ، واضع في ثقبه لونا معينا .. ابدأ بـالازرق ثم الاحمر .. وهكذا ..

ـ لماذا ؟

ـ لكي ارشد من يصعد بعدي ..

هل قدم له الاب حقيبته القماشية ومعداته ؟ ولماذا ؟ .. لم يعرف (ص) الاجابة ابدا ، الا انه تناولهم من العجوز شاكرا . تبادل نظرات مشجعة مع صديقه ثبت رأس الازميـل الاول في الصخر . دق عليـه بعنف . اخترق الجدران الملساء الصلبة ببطء اختبر صلابته . وجده ثابتا في مكانه .. وضع اخر اعلاه . دق عليه بشدة انزلق الازميل من يده . فقد توازنه . كاد ان يتهاوى في ظلمات الهوة الفاغرة ، لكنه ـ بقوة مجهولة ، غامضة ـ تمكن بصعوبة من دفع ابيه وصديقه نحو قاعدة ممتدة ناحية اليمـين . فسقط ثلاثتهم برفق على الارضية اللامعة ..

تمدد العجوز على فراش في عمق القاعة ، اسفل نافذة زجاجية ، طويلة ، مغلقـة . جلس علي عنـد حافـة السريـر . تحـدثـا عن شئ مـا . تعـالت ضحكاتهما ..

تطلع (ص) الى الحوائط المصقولة ، والى الارضية النظيفة التي تبرق «هل نحن في مستشفى» ؟ اقترب منهما . همس : كدنا نضيع في الهاوية ..

رنا الى ابيه التفت الرجل اليه .. بقايا ضحكة على وجهه المغضن . برزت بعض شعيرات صدره البيضاء من فتحة جلبابه ، الذي بدا واضحا انـه ارتداه على لحم جسده مباشرة . قال : اتصدق انني احضرت معي عشرة الاف جنيه لايداعهم .. كان يمكن ان يضيعوا ايضا ..

« يودعهم اين ؟ ولماذا الحديث عن النقود ؟ لم يوضح العجوز شيئا»

جلس (ص) على الناحية الاخرى من السرير اشترك معهما في الحوار ،

بينما انتشر الظلام حولهم ، وامامه مباشرة ، كان ذات المعبر الصاعد ، المنزلق ، يقف متحديا كل من يرغب في المغادرة ..

* * *

نهض (ص) من نومه فزعا .. كان حلقه جافا تماما . اضاء المصباح المعلق أعلى الفراش . كانت امراته تغط في نوم عميق . نظر للساعة . وجدها تشير الى الثالثة صباحا ..

وضع قدميه في الخف المنزلي . عاودته جملته التي قالها لابيه «كدنا نضيع في النهاية» مشى في الصالة الى المطبخ ، على هدى الضوء المنبعث من غرفة النوم .. «ولماذا علي زكي في هذا المكان ؟ انه يعمل في قسم بعيد عني» .. فتح الثلاجة تناول زجاجة الماء . تجرع بشراهة «الايكفي ملاحقته لي بشكاويه في يقظتي حتى يطاردني في نومي ؟» .. انزل الزجاجة . وضعها مكانها , مشى عائدا «وما مغزى الاموال والمنحدر ؟» ..

حملق في طيات الظلام المتكاثفة في الخارج . هز رأسه ، محاولا ان يطرد منه اي وساوس أطفأ المصباح . اندس بين الاغطية . انتفض «وما معنى وجود الاب وعلامات الصعود ؟ ..»

حاول ان يهدئ نفسه «لقد كتبت لي النجاة في الحلم .. فهل هكذا ستفسره الايام القادمة ، أم سيظل - ابدا - بلا تأويل ؟ ..»

(٣)

أعد عم عوضين الدفعة الاولى من الشاي . على لهب موقد بنزن . وضع كوبا امام (ص) والاخر امام اكرم بدأ يعد الدفعة التالية لصفوان صدقي وحسن لمعي .

كان (ص) منهمكا في ترتيب اوراق البحث ، محاولا ان يخفي توترا داخليا نظر من طرف خفي الى اكرم لم يعرف حتى الان ماجرى بالامس ..

هل .. ؟

ارتشف رشفة من الشاي الساخن .. انفجر على حين غره : هل تعرف ان المدير كان هنا بالامس .. كاد ان ينكر ان هذا الصوت المنفعل هو صوته .

التفت اكرم اليه دهشا : سيادة المدير شخصيا شرف المعمل .. هذه سابقة خطيرة ..

كان اكرم طويلا ، نحيف البنيان ، له رأس صغير ، وعينان مدورتان .. قال : هات ما عندك ياعزيزي .. لاتخف شيئا ..

حكى له (ص) ما حدث بالتفصيل ، وانتهى بمناقشاته مع زوجته ، وميله لقبول العرض .. ساد الصمت لبرهة . قطعه (ص) باضافة عاجلة : وسيحضر مندوب المؤسسة اليوم لاقابله .

أشعل اكرم سيجارة . تأمل (ص) طويلا : اخيرا جاء دورك .. فأنت من أقدم الباحثين المؤهلين في المركز .. لقد سبقك الاخرون الى مشاريع مشابهة ..

لحظة صمت ، بعدها اشار اليه أكرم كمن يتهمه : عيبك الوحيد انكبابك على العمل .. حتى انك لاتدري شيئا عما يجري خارج المعمل ..

- وماذا يهمني ما يجري في الخارج .. ما دمت مهتما بعملي ؟

نفث اكرم دخان سيجارته بسأم .. : حتى تفهم حقيقة الحياة التي نحياها .

قاطعه (ص) : ولكني افهم واعرف .

أشار له اكرم بيده متحديا ليتوقف : هل كنت تعرف انني عضو بمشروعين ؟

ذعر (ص) : أنت ؟ .. وكنت تخفي عني .. وانا اعتبرك صديقي .

هز اكرم رأسه : هل لو كنت اخبرتك ، كنت ستوافق ؟ .. انا واثق انك كنت سترفض بحجة عمل القسم .. وبحكم اقدميتك بالعمل هنا .. كنت

سأرضخ لرغبتك في الوقت الذي يتبادل فيه الجميع المنافع .. ولكن هل تعرف كم مشروعا لدينا بالمركز ؟ هل تعرف كم هيئة ؟ ، ومؤسسة عالمية تقف خلف هذه المشاريع ؟ .. اننا الآن منفتحون على كل الجبهات أو بمعنى اصح كل الجبهات هنا الان .. هل تعرف بدل مدير المشروع وامتيازاته ؟ .. يكفي ان اقول لك أن هناك من هو مشترك في مشروع واثنين وثلاثة وانت محلك جالس . امام المجهر منذ سنوات ..

ارتفع رنين جرس التلفون ، مد (ص) يده . تلقف السماعة . اعتدل في جلسته : أهلا .. عندك ياباشا الآن في المكتب .. حاضر .. سآتي فورا .. شكرا ..

وضع السماعه ببطء . كان صفوان صدقي يتابعه ببصره ، بينما حسن لمعي منكب على المجهر . نهض واقفا : سأذهب الى مكتب المدير .

مشى نحو الباب . كان التأثر باديا على محياه . حدث نفسه يخفي عليّ .. وكنت اعتبره صديقي . لماذا .. أمن أجل عدة جنيهات اضافية ؟ ..

تبادل التحية مع عدد من الزملاء الذين كانوا يعبرونه .. توالت حجرات معامل الاقسام المختلفة على يمينه ويساره ، بعضها مغلق الابواب والاخرى مفتوحة . كانت تبلغ مسامعه اشتات احاديث متداخلة . عبر غرفة المكتبة . واجهته غرفة المدير «يجب أن اركز تفكيري حول العرض المرتقب ، وامام مندوب المؤسسة .. حتى يشعر المدير ان اختياره كان موفقا »

طرق باب حجرة المدير . دخل .. كان المدير كامنا وراء مكتبه . امامه شاب في العشرينات من عمره . يرتدي بدلة انيقة . يضع ساقا على ساق . نهض المدير . حيا (ص) . وقدمه الى مندوب المؤسسة : السيد (ص) .. كبير باحثين بالمركز ومن افضلهم ..

أومأ مندوب المؤسسة برأسه محييا . جلس (ص) قبالته . احس بالخجل من نظرات الشاب المتفحصة . للمرة الاولى يخجل من ملبسه ، الذي لم يهتم

به يوما باستثناء فترة خطوبته ، وامـا بعد الزواج فقـد رجع الى قـواعد لامبالاته القديمة ، يحتمي بهـا من نظرات الفضـوليين ، حتى جـاء هذا الشاب وايقظ خجله

قال المدير : أظنك فكرت جيدا بالامس ..

تلاقت عيناهما . قال : نعم ..

وكأن المدير كان ينتظر كلمته . نهض ثانية : طالما انك قبلت .. سأتركك مع مندوب المؤسسة .. لترتبا اموركما سوية .. وتستفسر منه كما يحلو لك .. أما أنا فلدي اجتماع في لجنة ..

حياهما . انصرف مسرعا . اغلق باب الحجرة وراءه . سقط (ص) في لجة الصمت تحت وقع سياط نظرات الشاب . .

تنحنح (ص) : في الحقيقة أنا جديد في هذا المجال .. وهي المرة الاولى .

ابتسم الشـاب . بدت ابتسـامته ودودة ، مشجعـة : بالطبـع .. انـا اعرف .. ويمكنني الان أن اوضح لك بعض الحقائق عن عمل المؤسسة .. لقد حددنا لك موعدا مع المسؤول بالمؤسسة عن مشاريع القطاع الزراعي ، ليستقبلك ، ويشرح لك دقائق الامور .. ويمكنك أن تطرح عليه أي اسئلة علمية قد تتراءى لك ..

ـ اهناك مسؤولون اخرون عن قطاعات اخرى بالمؤسسة ؟

ـ ان مجال ابحاث المؤسسة يغطي جميع القطاعات بالدولة ، ونحن نؤمن بالتخصص ، لذلك فقد خصص لكل قطاع بالدولة ، نموذج مصغر ، مناظر له لدى المؤسسة ، يرأسه خبير .. يباشر ويتابع كافة الابحاث والمشروعات التي تجريها المؤسسة في هذا القطاع ..

تذكر عنـدئذ حـديث اكرم صـالح : وهل اجـريتم قبل ذلك بحـوثا في قطاعنا ..

ـ ان هـدف المـؤسسـة الرئيسي هـو تشجيـع التنميـة الاقتصـاديـة

والاجتماعية في بلادكم .. وبطبيعة الحال اجرينا العديد من المشروعات في قطاعكم .. لقد بدأنا العمل منذ عدة سنوات ، وبتعاوننا المثمر نستمر ..

اذن لقد صدق اكرم صالح حين اخبرني انه يعمل بمشروعين .. وكنت أنا الوحيد الذي لايعرف

رنا للشاب : ومتى يمكننا ان نذهب ؟

- الآن اذا رغبت ..

وقف (ص) تبعه الشاب . سارا سويا في صمت . كان (ص) يحاول أن يستوعب ما سمعه منذ لحظات ، فيراوده احساس طاغ انه يلج ابواب عالم سحري تفتحت له مداخله فجأة ..

أمام باب المركز الخارجي . رأى سيارة فارهة . وسائقها بزيه الخاص رابض وراء عجلة القيادة بفخار ، هبط بسرعة عندما لمحهما . فتح لهما الباب . ركب (ص) أولا ثم الشاب . اغلق السائق الباب برفق عاد الى مكانه . اشار له الشاب : الى مقر المؤسسة ..

انطلقت السيارة . غاص (ص) في مقعدها . ليخرج علبة سجائره سارع الشاب بتقديم سيجارة من علبة سجائره المستوردة . تناولها شاكرا . أشعلها له ايضا .. لعل المدير كان صادقا عندما اخبرني انني ساشكر له هذا العرض يوما .. فكر (ص) ..

كانت البيوت تتراجع ، والسيارة تتجاوز السيارات المندفعة بجوارها ، حتى توقفت في النهاية امام مبنى ، ضخم عملاق ، بدا له كاحدى ناطحات السحب التي شاهد صورتها في مجلة ما ، كانت اشعة الشمس تنعكس متوهجة ، على سطحها الخارجي ، المغطى اغلبه بالزجاج الغيمي ..

تخطيا باب المبنى . كان البهو متسعا ، ارضيته مغطاة بالموكيت . جيد الاضاءة والتهوية . استوقفهما احد موظفي الامن ببدلته الداكنة اللون اخرج المندوب كارنيه المؤسسة المغلف بالبلاستك واشار له أن (ص)

مرافقه . اوضح له الموظف ضرورة مروره بجهاز الامن دعا المندوب (ص) الى اخراج ما يحمله من عملة معدنية ، وضعها داخل علبة دائرية وعندما عبر الجهاز استرد نقوده .. لاحظ ان هناك على الكاونتر الممتد بجوار جهاز الامن ، اكثر من جهاز تلفزيوني ينقل الحركه داخل البهو وعند المدخل .. توجها بعد ئذ الى المصاعد في المواجهة . احصى (ص) ثلاثة منها بجوارها عدد من طفايات السجائر ، تلتمع جدرانها الصفـراء . انضما الى جمـع محتشد من الوطنيين والاجانب ، تميزهم ملابس انيقة ، وعطور آسرة ..

هبط المصعد . انحشرا داخله .. قال الشاب لعامل المصعد : التاسع .

تلفت للوجوه حوله رآها صامته ، جادة ، جهمة ، مغلقة ، كل مستغرق في عالم خاص يسبح فيه ، ينتفض فقط عندما يأتي طابقـه ليغادرم بخـطوة واثقة .. تذكر عند ئذ مركز الابحاث بمبنـاه القديم ، وجـدرانه المهـدمة المتساقطة الطلاء ، ومصعده المعطل دائما ..

غادرا المصعد في الطابق التاسع .. كان الهدوء سائدا ، والجو مكيفا ، والمكان نظيفاً . دبا على ممر طويل ، مغطى بالسجاد .. انفتح الممر في نهايته على مكاتب على الجانبين ، تفصل بينها حواجز (آلرميتال) . الكل مندمج في عمله لاثرثرة ، لا ضوضاء ، بينما ارتفعت دقات خافتة متتالية ، لآلة ناسخة أو لجهاز تلكس .

ولج الشاب غرفة جانبية . اقتفى (ص) اثره . رأى فتاة بيضاء انيقة المظهر كلمها المندوب بصوت خافت . طرق جرس صوتها الساحـر سمعه برقة . كانت تجيبه بانجليزية طليقة . رحبت به وبضيفه ، وسمحت لهما بالدخول . تحرك (ص) مسلوب الارادة الى حجرة مسؤول القطاع . بدت فسيحة ، مستطيلة الشكل الى حد ما . كان مكتب المسؤول في المقدمـة . امتدت مائدة اجتماعات عملاقة في الجزء الخلفي ، مغطاة بقماش سميك اخضر اللون .. تقدم المسؤول لاستقبـاله . اكتشف (ص) أن الشاب لم

يدخل معه . حياه الرجل . كان جسمه ممتلئا ، لامع البشرة ، مصفف الشعر له شارب صغير منمق . قال ببشاشة : يسعدنا ان تشارك بجهدك معنا ، لتصبح مديرا لاحد المشروعات .

قال (ص) مجاملا : أرجو ان اكون عند حسن ظنكم .

مستدركا : لكني احاول ان افهم طبيعة هذا العمل ..

قال المسؤول بهدوء : ان هدفنا الرئيسي هو تشجيع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلادكم ، وبالتالي يتحقق التطور ويسود السلام .. ومن أجل ذلك شيدنا هذا المبنى الضخم ، على ارض قدمها لنا قطاعكم .. واثثنا داخله معامل علمية متخصصة باحدث امكانيات البحث .. ساخذك في جولة لمشاهدتها .. ان مشاريعنا المشتركة تركز اساسا على الجانب التطبيقي ، لذا تبدأ من مراكز البحث ويدعمها اساتذة الجامعات بجهودهم الاكاديمية ، من اجل تحسين المحصولات والحبوب والخضروات والفاكهة .. وخصص للبحوث الزراعية تمويل يقترب من الخمسين مليونا ، في خطة العام ..

علق (ص) : واساتذة الجامعات يشتركون ايضا ؟

أجاب المسؤول باقتضاب : بطبيعة الحال .. خصوصا هؤلاء الذين حصلوا على شهاداتهم العليا من بلادنا .. وان كنّا لا نشترط ذلك ..

ثم استطرد : ونحن بطبيعة الحال لانصر على ضرورة العمل بمعاملنا فلكم حرية مطلقة

اسعد (ص) ضمير الجماعة الذي استخدمه الرجل عند مخاطبته ، واثلجت صدره عباراته المهذبة ، الواضحة ..

تناول الرجل ملفا برتقالي اللون من فوق مكتبه . قدمه الى (ص) : ستجد في هذا الملف كافة المعلومات التي ستوضح لك اسلوب العمل ونظمه ، وستجد فيه نقاط البحث المقترحة .. وعددا من النقاط التي تساعدك على اختيار مشروع البحث بالاضافة الى الميزانية والمكافآت ونظام تقديم

التقارير .

أخذ (ص) الملف . فتح الغلاف البلاستيكي الشفاف . قرأ أعلى الصفحة الاولى اسم المؤسسة .. وفي وسطها كان اسمه وأمامه مدير المشروع ثم لقبه العلمي ووظيفته ، بحروف انجليزية صغيرة .

ـ موضح بالملف ايضا وسائل الاتصال المختلفة بنا .. ان عملنا يتسم بالتنظيم الدقيق ..

بدت كلمات الرجل بسيطة ، مألوفة ..

وقف : أرجو ان تقرأ هذا الملف بعناية .. واعتقد اننا سنلتقي كثيرا في الفترة القادمة .. والان هل تحب ان نتجول قليلا بين معامل الابحاث التي حدثتك عنها ..

أومأ (ص) برأسه موافقا ..

* * *

تحركا سوية . كان (ص) مبهورا بكل مايراه حوله . لم يصدق عينيه وهو يرى تجهيزات المعامل ،وهو الذي اعتاد العذاب للحصول على اتفه احتياجات العمل كالكحول الابيض مثلا .. ادهشه ايضا مقابلة عدد كبير من اساتذة الجامعة ..

خرج في النهاية ثملا بما رأى . فوجد مندوب المؤسسة والسيارة في انتظاره ليوصلاه الى منزله ، اخبره بالعنوان ، وظل طوال الطريق صامتا ، ساهما .. لقد تفتحت له فجأة ابواب عالم جديد ، يستطيع بدأبه واخلاصه أن يقدم فيه انجازا غير مسبوق .. فبدا وكأنه يهمس لنفسه لابد ان نستفيد من تلك الامكانيات المتاحة ونبذل الجهد من اجل التنمية .. سوف اضرب المثل للزملاء ، واكون نموذجا في التفاني والامانة العلمية .. وسوف اعلو ـ كعهدي ـ على تفاهات الزملاء وما يتردد عنهم احيانا ،واهم شيء

سيكون امامي في المرحلة القادمة هو اختيار فريق عمل مناسب ، سيكون معيار الاختيار هو الكفاءة والنزاهة ولا شئ سواهما ، ولن تتدخل الوساطة او المحسوبية في اختياري سوف اضرب المثل لكل الزملاء .. سوف اضرب لهم المثل ..

وصل الى منزله ، ودع المندوب شاكرا . اكتشف وهو يصعد السلم ، ان النهار لم ينقض بعد ، وهو المعتاد على العودة دائما في وقت متأخر من الليل ..

ابتسم بصفاء ..

(٤)

لم يستطع (ص) الانتظار مابعد الغذاء ، بل حكى لزوجته باسهاب عما حدث ، اثناء تناول الطعام ، وسلوى بين ساقيه تجري تارة ، تنفلت من بين يديه ، وتعود ثانية ، فيحاول امساكها ، وهي تعاود الكرّة بانتظام وقد أعجبتهااللعبة ..

كان وهو يحكي لزوجته يستعيد ماسمع وما رأى ، فيتسع نطاق دهشته ، وينصرف كل تفكيره الى هذا العالم الجديد الذي ولجه اليوم ، فانتزعه انتزاعا من تيار حياته الثابت الرتيب ، وقذف به الى بحر من المتغيرات لم يألفه من قبل .

هنأته زوجته على حنكته وحسن تصرفه ، وحين عاد ولداه من مدرستهما ، قبلهما واحتضنهما فرحا .. ونام بعد الظهر سعيدا مع زوجته ، ربما للمرة الاولى منذ فترة طويلة ، حالما بأيام الهناء المقبلة .

* * *

في المساء زاره اكرم صالح في بيته . استقبله (ص) بوجه باش رغم ماحدث في الصباح .

قال اكرم بعد فترة صمت : يجب ان تعذرني .. ان علاقتنا وطيدة .. وانا

لاانسى انك اخذت بيدي منذ بداية تعييني عندما وزعتني القوى العاملة على المركز ولاانسى ايضا انك شجعتني على الدراسات العليا .. ولكن ..

احضرت الزوجة صينية اكواب الشاي . وضعتها على المائدة . جلست معهما .. وجه اكرم اليها الحديث : أرجو ان تشاركينا برأيك ياmadam سناء .. لقد اخفيت عن (ص) أمر اشتراكي في مشروعين .. انت تعرفين ان علي التزامات اسرية ، وأرغب في الزواج لذا احتاج الى دخل اضافي لمرتبي المحدود .. لكن مادفعني حقيقة لاخفاء هذا الامر .. ان (ص) لن يوافق ابدا .. انه (حنبلي) تماما في عمله وله رأيه الخاص في اهل المشاريع لمجرد بعض اشاعات لااساس لها من الصحة وسوف تثبت له الايام ذلك ..

قطب اكرم ملامحه . احس انه تجاوز الحدود . حملق فيه (ص) تدخلت الزوجة : معك حق يااكرم أنا اعرف (ص) جيدا .. حياته هي عمله ، حتى انه قد يهمل أيضا بيته في سبيل العمل ..

قال (ص) مؤنبا : سامحك الله ياسناء .. وانت ايضا ..

قال اكرم : عموما انا اعترف أنني اخطأت رغم ذلك .. واعتذر ..

ابتسم (ص) بحنان اخوي : خلاص ياسيدي . ولاتحبكها .

قالت الزوجة عندئذ : لنتناول الشاي اذن .. قبل ان يبرد .

امتدت الايدي . ارتفعت اكواب الشاي الى الافواه .. قال اكرم : لكن يجب ان تكون حذرا . فالمدير داهية حقيقي .. ولاتنسَ أنه لم يصدر لك حتى الان قرارا برئاسة القسم ، رغم اقدميتك .. لان تعليق الوضع يجعله دائما في المركز الاقوى ..

قال (ص) : قد تنصلح الاحوال الان بعد مبادرته ..

رد اكرم : هذا ادعى ان يكون تنسيقك معه كاملا بالنسبة للمشروع .

ـ لقد اعطاني مسؤول المؤسسة ملفا به كافة البيانات . سأقضي الليلة في دراسته .. وفي الصباح أناقش الامر مع المدير ..

ثم كمن تذكر فجأة : هل تصدق انني قابلت اليوم العديد من اساتذة الجامعة في معامل المؤسسة ..

- وهل قابلت الدكتور مرسي مرزوق ؟ .. انه المشرف على رسالتي الجامعية انني اكره عجرفته وصلافته ..

- ولكنه كان معي رقيقا ، مهذبا .. وقد وعدني بأن يزورني قريبا بالمركز .

- ترى هل يمكن الاستعانة به في المشروع ؟

انفجر (ص) في الضحك : لقد بدأ اكرم يشغّل المشروع لحسابه ..

وارتفع داخله هاتف داخلي :طبعا لن استعين به لمجرد هذا السبب .. والا كيف اضرب المثل بنفسي..

ارتفعت الضحكات حتى دمعت العيون . بعدها قال (ص) : بالمناسبة ماهما المشروعان اللذان اشتركت فيهما ..

- احدهما مشروع تحسين محاصيل الزيوت ، والاخر تقدير خسائر سوسة ماء الارز .

- لكنك لاتعمل في هذه المجالات .. انك تعمل معنا في القسم .

- لمدير المركز سلطة ان يساند من يشاء .. ولعله اختارني لذر الرماد في العيون .

- ومن المشرف على كلا المشروعين ؟

- مشروع تحسين محاصيل الزيوت يشرف عليه صلاح عبد الرشيد .

انزعج (ص) : لكنه يرأس قسم بحوث امراض الفاكهة .

- ويشرف فكري راشد على مشروع سوسة ماء الارز .

ضرب (ص) كفا بكف متأسيا : والله مأساة .. ففكري يرأس قسم بحوث امراض القطن .

حاول اكرم ان يهدئه : لاتنظر الى الامر من ناحية التخصص .. بل انظر اليه من ناحية اوسع .. اليست كلها محصولات حقلية ؟ !

ـ وهل يفهمون في هذا العمل ؟

ـ أنـا اساعـدهم ، وغيري يسـاعدهم ايضـا .. وفي النهـايـة نقبض ويقبضون .. فلم نضخم المسائل ؟

تمتم (ص) بحزن : لم نضخم المسائل ؟

استدار اكرم الى الزوجة : كلميه يامدام .. يجب ان يتعامل مع الواقع بعقل متفتح ، والا سيسوء الحال ..

وافقته الزوجة : سيفكر (ص) مرتين قبل الاقدام على أي تصـرف .. فمستقبلنا هذه المرة بين يديه ..

انتقلت نظرات (ص) بينهما راجيا ان يفهماه .. واجهاه بعيون صلبة جامدة ، تنطق بادانته .. تاهت نظراته في الليل القاتم : يجب ان اتعامل مع الواقع بعقل متفتح ، عندئذ تذكر وجه ابيه الشاحب ..

هز راسه بغير اقتناع .. اهذا مايجب ان افعل ؟

* * *

سهر (ص) مع ملف المؤسسة وسط دخان السجائر والقهوة . كان يقرأ باهتمام شديد ، وتركيز ، ويعيد كل كلمة مرات ومـرات ، راح يسترجـع الخطوط العريضة لما قرأ قبل أن ينام .. كان من اهم الشروط التي يجب توافرها في المشروع : أن يكـون المشروع تـطبيقيا وان يسهم في تنميـة المجتمـع المصري ، وأن يتضمن تحـديـدا للجهـات المستفيـدة بنتـائـج المشروع ، وأن يقوم بالمشروع فريق عمل متكـامل من العـاملين بمراكـز البحـوث ، ويجـوز ان يعـاونهم اعضـاء من الجـامعـات ومن الجهـات المستفيدة ، وأن لايكون المشروع ممولا من جهة اخرى بخلاف المؤسسة ، وان يقدم الباحث الرئيسي (المشرف على المشروع) تقارير دورية عن سير العمل بالمشروع كل ثلاثة شهور ، وتقريرا سنويا في نهايـة كل سنـة من سنوات تمويله ، وتقريرا نهائيا عند انتهاء المشروع وترتبط الميزانية تمام الارتباط بانتظام تقديم التقارير في مواعيدها ..

أما عن كيفية اختيار المشروعات فتحدد بشرطين : مدى قرب المشروع البحثي من المجالات ذات الاولوية ، وثانيا بـالكفاءة الداخليـة للمشروع ومدى اسهامه في تطوير البحث العلمي ..

كمـا افرد الملف عـددا من الصفحات عن تمـويل المشـروع ، وكيفية الانفاق ، وخطط لميزانية مقترحة للمشروع

لكن (ص) توقف عندما قرأ عنوان المشروع المقترح ، كانت مفاجأة ..

«النهوض بالمحاصيل السكرية»

«اذا لابد أن يعتذر عن هذا المشروع .. انه يعمل منذ سنوات طويلة في مشروع البصل» .

هل هذا معقول ؟ لابد انه حدث خطأ ما ..

هل يعتذر عن ادارة هذا المشروع ؟ ، ويهدر هذه الفرصة ؟ .. هل .. هكذا اخذ يناقش نفسه ، وهو يتأرجح بين القبول والرفض .

(٥)

في اليوم التالي ، قرب العاشرة صباحا ، مضى (ص) للقاء مدير المركز طرق الباب طرقتين ودخل . كان المـدير مشغـولا بالتحـدث مع عـدد من الزائرين بدا انهم بعض الدارسين الافارقة من لون بشرتهم وعـددهم .. عندما لمحه توقف نهض لاستقباله ، ودعاه للانتظار قليلا حتى يفرغ من لقاء ضيوفه . جلس (ص) الى جانب المكتب ، محاذيا لكرسي المدير ، فأمكنه ان يتابع حديثه ، وهو يحدثهم . لاحظ ان رأسه اصلع ، مستدير ، لامع ، لكن وجهه كان أحمر منتفخا ، بينما انثالت الكلمات من فمه ، متدافعة ، متوالية ، ترسم خطوطا عامة للمركز واقسامه الثمانية وأهمية البحوث التي يقوم بها المركز ، وموقعه بالنسبة للمراكز الاخرى المثيلة ، ثم اوضح ان جميع هذه المراكز تهدف الى خدمة الانتاج المحصولي ، ابتداء من التربة

بأنواعها المختلفة (صحراوية ، بساتين ، حقول) ، ودراسة الافات التي تصيبها ثم الاهتمام بالنبات ذاته ورعايته وحمايته .

رأى (ص) الدارسين ينصتون باهتمام لمدير المركز ، وبعضهم يسجل بعض مايسمع ، سرح تفكيره الى أيام دراسته الجامعية بكلية الزراعة ، فرغم انه لم يدخل هذه الكلية باختياره ، بل بمجموعه في الثانوية العامة ، الا انه احب الدراسة بها خاصة المحاضرات التجريبية التي كانوا يقضونها في حقول الكلية .. كان لدية حنين غامض للقرية ، ولاجوائها المفتوحة ، لايشبعه اشتراكه في سفرات اسرته القصيرة المتباعدة لقريتهم في الصعيد ، فكان يجد في زيارات الحقول اشباعا لهذا الحنين او مهربا من واقع حياته الكئيب داخل بيتهم المتهدم في احد سراديب المدينة الخلفية ، المجهولة ، ثم تطور الامر فكان يقضي في الحقول معظم اوقات فراغه دارسا او مسترخيا بعيدا عن هموم حياته اليومية ، من اجل ذلك تقلصت علاقاته خلال فترة دراسته الجامعية بدفعته ، باستثناء علي يونس لانه كان يسكن قريبا منه ، وعدد محدود من الزملاء ..

انتبه (ص) للزائرين يغادرون الحجرة . اوصلهم المدير للباب . عاد اليه . جذب كرسيا الى جواره : كلي آذان صاغية ..

تنحنح (ص) قال ببطء محاولا انتقاء كلماته : لقد زرت المؤسسة بالامس وقابلت مسؤول القطاع الزراعي ،وتسلمت ملفا خاصا بي ، درسته طوال الليل .. ثم حضرت لمقابلتك للاسترشاد برأيك ..

لحظة صمت ، كمن يستعد ليعتذر عن المشروع . بسط المدير ذراعيه : تحت امرك ..

التقت عيناهما . اعجبته عيني المدير العسليتين . قال : في الحقيقة فان امكانيات هذه المشاريع مذهلة .. تماما كما اوضحت سيادتك .. وانا اشكرك لاهتمامك بمشاركتي .. لكنني اعمل في قسم بحوث البصل ، والمشروع

موضوعه ..

ابتسم المدير مقاطعا : لاتشغل بالك بهذا الامر .. قدم له المدير سيجارة واشعلها له . ثم اشعل لنفسه اخرى . نفث دخانها ثم قال بهدوء :

ان اي مشروع تقوم به ـ هنا او هناك ـ هو للصالح العام .. فاذا قمت بمشروع ما فانت تخدم المركز . وتؤدي عمل المؤسسة في ذات الوقت ، وانت باحث عظيم نستفيد بخبراته وتفكيره في حل مشكلاتنا القومية ، فنستفيد وتستفيد المؤسسة .

ـ لكن ماذا تستفيد المؤسسة ؟

ـ ان هذه المؤسسة تقدم لنا المعونة التي تسهل اجـراء البحث .. فلم نعترض ؟ ولماذا تشغل بالك اذا استفادت تلك المؤسسات أم لم تستفد .. ان هناك بروتوكولات تعاون بيننا وبين تلك الدول المتقدمة ..

ـكيف اعمل سنوات طويلة في بحوث البصل .. ثم يطلبون مشروعا في المحاصيل السكرية ؟

ابتسم المدير : لماذا نتناول الامور بانفعال .. اذا لم يعجبك اقتراحهم فكـر في أي مشروع اخـر جديـد ، يمكنك ان تبـدأ .. ان هذا جـزء من مسؤوليتك كمشرف على المشروع ..

ارتاح (ص) لهذا الرأي . انفرجت اساريره . قال : مشكلة اخرى اطلب أن تساعدني فيها بعد قبول المشروع .. وهي من نقترح ان يعمل معنا ؟

ـمعنا .. تقصد ان اشترك معكم في المشروع ؟

ـ حتى تضئ لنا الطريق بخبرتك .

هز رأسه مفكرا لابد انه استحسن كلمات (ص) : رغم اني مشرف على مشروعين .. الا انني سأقبل الاشتراك معك نزولا على رغبتك ..

برحت ب (ص) سعادة لم يشعر بها من قبل لكلماته ولرضىٰ المدير : وأنا أشكر لك هذا الشرف ..

أضاف المدير : واقترح ان تشرك معك من رؤساء الاقسام الاخرى امجد يونس رئيس قسم البكتريا وعلي حمدي رئيس قسم الفطريات .. اما الزملاء الآخرون فأنا أترك لك حرية اختيارهم ..

حاول (ص) أن يقتنص فترة الرضى المتاحة ، ليزج بعلي زكي معه في المشروع حتى يعوضه بعضا من الظلم الواقع عليه ، رغم معرفته بالمشاحنات المستمرة بينه وبين المدير : اذن اعتقد انك لن تمانع لو اضفت علي زكي الى العاملين معي ؟

انفعل المدير : اختر من تشاء ليعمل معك .. أما علي زكي هذا ، فقد سبق وادخلته مشروعين بمعرفتي ، وفي هذا الكفاية له ، لانه موظف مشاغب يجب منحه بحساب ..

نهض المدير ، وكأنه بكلماته تلك قد أغلق باب المناقشة في الموضوع . تقبل (ص) الامر صاغرا ، متذكرا نصائح أكرم وزوجته ، خاصة بعد اصراره السابق على رأيه في اختيار مشروع بحث آخر بخلاف المشروع الحالي المقترح ..

وقف ايضا . صافح المدير : سأعد اوراق المشروع واعرضها عليك قبل ارسالها للمؤسسة ..

هنأه المدير ، لقد اثبت ياسيد (ص) انك كنت عند حسن ظني .. تماما كما فكرت ..

انصرف (ص) مشرق الوجه . كانت الارض لاتسع فرحته . للمرة الاولى يؤدي دوره كما يجب . ستسعد زوجته وصديقه عندما يحكي لهما . لن يصدقا انه أدى الموقف المطلوب بهذا الشكل الرائع ، لن يصدقا انه قال ما قال .. لن يصدقا أبدا انه بدأ وضرب المثل برفضه مشروعا لايتبع موضوعه القسم الذي يعمل فيه على عكس بعض مديري المشاريع الاخرى الذين يقبلون صاغرين .

انفرد (ص) باكـرم في غرفـة تحميض وطبع الافـلام العلمية الملحقـة بالعمل ، حتى لايتابع اي من الزملاء حديثهما ، حكى له عن تطورات اليوم الجديدة مع مدير المركز .

علق اكرم : كان ما قمت به رائع ياعزيزي .. باستثناء جزء هام يرتبط بطبيعتك لم يتغير ..

ساد الصمت لوهلة . كانت تصل اسماعهما همهمات الزملاء بالخارج .

استطرد اكرم : حين اقترح عليك المدير أن تقدم للمؤسسة نفس مشروعك الذي لم ينته ، لم يكن يفعل شيئا جديدا .. فهذا هو الواقع من حولنا .. ان غالبية مشاريع الزملاء مع المؤسسة ، هي في ذات الوقت مشاريع بحوث يقومون بها للمركز فعلا .. واذا كان الغرض في النهاية واحداً .. فلم تقاوم ؟

ـكيف يمكن ان نقدم مشروع عملنا الذي نقبض عنه مرتباتنا بالمركز ، للمؤسسة لكي نقبض منها ايضا ؟ كذلك ليس هناك ارتباط بين القسم الذي نعمل فيه وموضوع المشروع المقترح .. كيف اقبل ذلك ؟ ..

ضحك اكرم : لقد اراد المدير ان يوفر عليك الجهد ، الذي كنت ستقتنع بعد شهور طويلة ـ بعبث بذله ..

ـ لكن .. انا لااستطيع ان افهم .

ـ يجب ان تخرج من قوقعتك .. وان تتعامل مع الواقع كما هو .. والآ ..

عبس (ص) : انني احاول ان استوعب حقائق الواقع الجديد ..

ـ بل عايشها كما هي .. لاتفكر كثيرا ..

جذبه من يده : وهيآ كي تملأ اوراق المؤسسة ، حتى ترسلها ، ونكسب وقتا .. لان هناك سلسلة من الاجراءات قبل البدء .

فتح (ص) باب غرفة التحميض . تطلع الى اكرم كأنه يراه للمرة الاولى . أشار له اكرم ضاحكا : لا تحملق في كاني عفريت ..

اقترب من اذنه : على فكرة .. انت مدعو اليوم الى الحفل الذي يقيمه مدير المركز بمنزله بالهرم .. وهو يلح على ضرورة حضورك ..

فغر (ص) فاه دهشة . اكمل اكرم : سأمر عليك في السادسة .. لنذهب سوية ..

اشرأبت اليهما الاعناق . تركزت عليهما العيون .. نكس (ص) نظراته . مضى الى مكتبه في صدر المعمل . فتح ملف المؤسسة . اشعل سيجارة . فتح قلمه ليكتب .. نقبت عيناه عن الفراش حتى وجدته.«قهوة مضبوطة ياعم عوضين ..»

وانهمك في العمل وبدأ يفكر في مشروع يناسب طبيعة العمل في قسمه ولسان حاله يقول يبدو ان تغييرا كبيرا سيطرأ على حياته .. من يدري

* * *

كانت سيارة الاجرة تنهب بهما الارض ، في الطريق الى الحفل . تساءل (ص) ماهي مناسبة الحفل ؟

اجاب اكرم : ليست هناك مناسبة محدودة .. فالمدير يقيمها كل فترة .. ربما بهدف توطيد العلاقات الاجتماعية بيننا والترفيه عنا .. وللعلم فهو يدعو لهذه الحفلات عددا من الشخصيات البارزة سواء من داخل القطاع أم من خارجه ..

- وهل المدير غني الى هذه الدرجة ؟

نظر اكرم اليه ، مبتسما بوداعة : انت طيب القلب فعلا .. اننا جميعا نتشارك في صندوق خاص بمبالغ محددة . تستنزل عند استلام مستحقاتنا .. ويشرف عليه المدير شخصيا ..

- لكني لم اسمع بهذا من قبل ..

- طبعا .. لان هذا الصندوق خاص بالعاملين في المشاريع .. وما يحصل من مبالغ هي من اموال المشاريع ايضا .. هل تظن مرتباتنا المحدودة تكفي

متطلبات معيشتنا حتى نساهم منها ايضا ؟

ـ كانني لم اكن اعمل بالمركز اذن ..

ضحك اكرم : تأمل ماترى ، وتقبله .. لكن خفف من اندهاشك الدائم ..

هز (ص) رأسه : سأحاول .. سأحاول ..

* * *

كان الحفل في قاعة ارضية ببيت المدير ، ذات طراز شرقي ، نوافذها مطلة على الحديقة ، والثريات مدلاة من السقف ، والارض مغطاة بالسجاد ، والوسائد مترامية في ارجاء المكان ، وفي وسط القاعة سباط ضخم ، رصت عليه انواع مختلفة من الاطعمة الجافة والمشروبات ، بينما عبق الجو برائحة عطرة ، تسربت اليه من زهور الحديقة ، واختلطت بعطور الحاضرات الغالية الثمن .

القى (ص) نظرة خاطفة للداخل ، وهو يخلع حذاءه . شاهد جمعا مختلطا من الرجال والنساء ، تعالت اصواتهم وارتفعت ضحكاتهم ..

قال (ص) يبدو ان الحفلة مختلطة ..

ـ وهل تحلو جلسة بدونهن ؟ !

دخلا . تبادلا التحية مع كثير من الحاضرين ، سواء من العاملين بالمركز أو في الجامعة ، بينما بدت لـ(ص) وجوه اخرى يراها للمرة الاولى ..

همسّ له المدير : مرحبا بك ياسيد (ص) في حفلنا المتواضع ..

شد على يده بحرارة . صفق بيديه . ساد السكون : سنشرب نخبا على شرف صديقنا كبير الباحثين السيد (ص) الذي يشرفنا بحضوره لاول مرة ..

همس (ص) بخجل : لكني لا أشرب .

ابتسم المدير متبسطا : تناول معنا عصير مانجو ، برتقال .. هنا كلٌ يشرب مايهوى ..

قدم له اكرم كأسا مليئا بعصير المانجو . رفع المدير كأسه ، فارتفعت معه بقية الكؤوس ، وبدأ الجميع يشربون ، وسرعان ما فتر الاهتمام ، وعاد كل الى عالمه ..

مسح المدير شاربه بطرف السبابة : اترككما الآن لتستمتعا بالليلة ..

وأخرج من جيبه ورقة اعطاها ل (ص) ثم قال وهو يبتسم : حتى لاتكون لك حجّة !

لم يفهم (ص) ما يقصده المدير ، لكنه كان متشوقا لمعرفة ما فيها .

ضحك اكرم : فليستمتع كل بوقته .. من اجل هذا دفعنا ..

انصرف اكرم . جلس (ص) منزويا في احد الاركان . تلفت حوله .. احاديث جانبية متدفقة ، ضحكات منفلتة ، مناقشات حامية ، بينما ادارت احدى الحاضرات جهاز كاسيت ، فاندفعت منه موسيقى راقصة ، ساخنة ، مدوية . اندفع عدد من الحاضرين والحاضرات الى الرقص .. كان مايراه جديدا عليه . الجميع يتعامل ببساطة . وتلقائية والكل يلهو ويستمتع بوقته إلاهو حاول ان يقتنص اي فرصة ليقرأ ماهو مكتوب في الورقة التي تسلمها توا من السيد مدير المركز ، لكنه رأى فتاة جالسة ، قريبا منه وحدها ايضا ثبت نظارته على ارنبة انفه . سمعها ، وكأنها تحدثه : الاتعرفني ؟ حقيقة هل تغير شكلي الى هذا الحد ؟

حملق فيها .. «هل تحدثني ؟» .. كان وجهها أبيض مستديرا ، يحيطه شعر فاحم السواد عقصته منسابا الى جانبي الوجه بحيث يبرزه ، ويكاد يغطي الاذنين في ذات الوقت .

ـ انني سعاد .. زميلتك في قسم البكتريا ..

تلعثم . تردد .. لم تحدثه أبدا فتاة من مثل هذا القرب ، عدا زوجته طبعا

تمتم : اهلا .. اهلا .. طبعا اعرفك ..

كان متأكدا انه يكذب .. أما هي فقد اسندت رأسها للحائط : كنت دائما

اراقبك منذ زمن ..منذ تعييني بالمركز .. كنت اتمنى ان اتعرف اليك ..

تطلع الى جسدها الممتلئ بوجه جاد : لماذا ؟

أحس انه أساء التصرف . اندفع : اقصد لماذا ..

اندفع الدم الى وجهه خجلا . لم تسعفه الكلمات .. رآها تبتسم . ابتسم ايضا . تحولت ابتساماتهما الى ضحكات . تمددت واستطالت الى قهقهات حتى دمعت عيناهما ، وهي تذكره بكلمة لماذا ، فتتوالد الضحكات ثانية بعد ان كادت تذوي ..

اخيرا قالت : كنت تأسرني بجديتك التامة .. وانصـرافك الكـامل الى عملك .

ـ للمرة الاولى اسمع من يحترم عملي .. لكني هكذا خلقت ..

كانت الضوضاء من حولهما تتزايد . قالت : هـل تحب ان نخرج الى الحديقة ؟

ـ اهذا ممكن ؟

ـ ان لنا حرية مطلقة ..

ـ اشكرك لهذا الاقتراح .. ان اشدما يسعدني هو منظر الخضـرة .. بينها انسى نفسي تماما .

انسحبا بهدوء . ارتديا احذيتهما . انطلقا الى الحديقة .. غزا أنفيهما عبير الياسمين . واجههما سور الحديقة الذي تسلقته اشجار الياسمين ، ونشرت عليه فروعها . تمشيا ببطء على النجيل الاخضر ، تحت عـدد من اشجار البرتقال كان القمر بدرا . وكان ظلاهما يتحركان أمامهما باتزان . جلسا في الجانب البعيد من الحديقة تحت تعريشة خشبية يغطيها نبـات اللبلاب المتسلق ، وتتسرب منها بعض اغصانه ..

قالت : الجو بارد ..

أحس لسعة برد تتخلل عظامه . ارتعش . شخص بصره اليها . كانت تنظر امامها مباشرة . بدا وجهها فاتنا . تذكر المرأة الوحيدة التي داعبته ،

وهو بعد مازال في بداية مراهقته ، كانت الجارة السمراء ، ضخمة الجسد ، والتي كان كثيرا ما يجلس في حجرتها هربا من مسكنه ، وكثيرا ماكانت تستحم امامه ..

هفت الى سمعه ضوضاء المكان . تذكر كلماتها التي قالتها بالداخل فقال : وماذا سمعت عني ؟

ـ كل خير .. الجميع يشيدون بانكبابك على العمل ، واخلاصك ..

التمعت عيناه : هل تحدثيني عن نفسك قليلا ..

ابتسمت : ليس في حياتي شئ غير عادي .. تخرجت في كلية الزراعة انتظرت مثل الكثيرات ـ حتى وزعتني القوى العاملة على مركزكم .. بدأت العمل في قسم البكتريا مع امجد يونس ، الذي لا تعجبني اساليبه الملتوية . لقد سئمت التعامل معه . انه دائما يتحدث عن نفسه وامكانياته وقدراته ويتعالى حتى على زملائه ، وهو دائم التردد على ذوي المناصب .. و ..

ـ أرجو ان تعذريني .. لانني لا اعرفه معرفة وثيقة تتيح لي الحكم عليه .. ان علاقتي به محدودة ، لاتتعدى مجرد تبادل التحية ..

ضحكت باستهانة : ان علاقتك بكل العاملين بالمركز لاتتعدى التحية ؟

رمقها متحديا : وهل في هذا مايشين ؟

تاهت عيناها في الليل القاتم : كل لما يسر له ..

ساد الصمت بينهما . كانت زهرات الياسمين تلتمع هناك على السور ، تحت ضوء القمر ، نهض . اقتطف لها عدة زهرات . اهداهم اليها . تقبلتهم فرحة : هل تعرف انها المرة الاولى في حياتي يهديني فيها رجل بعض ازهار الياسمين .

استطردت بهمسة ذات مغزى : لم يفعلها احدهم .. رغم اني حضرت مرات كثيرة هنا .

أثلجت صدره كلماتها المشجعة . غمرته سعادة فياضة ، كأن الكون كان

يتفتح له في هذه اللحظات ، فتنفس بعمق عبق الياسمين ، ومن خلاله تسللت اليه رائحتها الخاصة ..

* * *

في نهاية السهرة . صرح (ص) لصديقه : انها المرة الاولى التي أسهر فيها خارج منزلي . لكنها كانت سهرة سعيدة ..

ـ ستسهر كثيرا ..

ثم محذرا :لكني انصحك كصديق .. لا تحكِ كل شئ لزوجتك .. انهن ناقصات ..

اكمل (ص) مقهقها : ناقصات عقل ودين .. ياسيدي ..

تذكر فجأة بعد ان بدأ يستغرق في النوم ورقة المدير العام ، فنهض على الفور مسرعا الى دولاب الملابس واخرجها من جيب جاكتته .

واضاء (الاباجورة) بجوار سريره ، وراح يقرأ .. كانت قرارا اداريا باشرافه على قسم المحاصيل السكرية معتمدا بتاريخ اليوم ..

هل كان يحلم .. ؟ ..

(٧)

في صباح اليوم التالي وقع حادث غريب .. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة .. (ص) واكرم صالح عاكفان على عدد من الاوراق يتحاوران بشأنها .. صفوان صدقي يفحص بعض الشرائح من خلال المجهر . حسن لمعي يقرأ في احد المراجع عم عوضين ، منزوٍ في ركنه العتيد في انتظار اي طلبات . فجأة ارتفعت طرقات على الباب ، وتحرك مقبضه ، ثم ارتفع صوت سعاد مهللة : صباح الخير ايها الخبراء ..

تلاقت عيناها بعيني (ص) فارتفعت الدماء الى وجهه كمراهق في الخامسة عشرة . تلعثم . تدارك اكرم الموقف : تفضلي ياسعاد .. صباح الفل .

تقدمت خطوتين . توجهت الى صفوان وحسن قائلة بابتهاج : يجب ان

تنهضا وتقدما التحية للسيد رئيس القسم ..

نظر كل منهما الى الآخر مستفهما . لم يفهما ما ترمي اليه .. تركزت نظراتها على (ص) : الم تفهما ؟ .. الاستاذ (ص) طبعا هو رئيس القسم ..

اتجهت ناحيته : ويسعدني ان اكون اول المهنئين ..

ارتبك (ص) : ماذا تقصدين ؟ .. اوضحي لنا ..

مدت له يدها . نامت يدها الرخوة اللينة في يده للحظة .. قالت : لقد أصدر السيد مدير المركز قرارا بانتدابك رئيسا للقسم ، لحين انتهاء اجراءات ترقيتك .. والقرار يطبع الآن على الاستنسل قبل التوزيع .

ابتسم (ص) : انت وجه السعد علي ..

غمز له اكرم : مبروك ياسيدي .. اخيرا نلت المراد ..

أشار (ص) الى كرسي بجواره : تفضلي هنا ..

ثم نادى عم عوضين ، وطلب عددا من زجاجات المياه الغازية لهذه المناسبة السعيدة . اقبل عليه صفوان وحسن لتهنئته . شكرهما .

قالت سعاد : أعرف ان رئاسة قسمك ظلت شاغرة منذ سنتين ..

أومأ (ص) : كل شيً بميعاد ..

تدخل اكرم : واجمل ما في القرار .. ان البشارة كانت على يديك ..

* * *

سرعان ما انتشر الخبر ، بعد أن وزع قرار الانتداب الموقع من السيد مدير المركز ، فجاء الزملاء من كل فج مهنئين ، فاستأذنت سعاد متعللة بعملها ، واكتشف (ص) ان كثيرا من الزملاء يطيلون المكوث ، متقربين منه ، ملمحين ، كأنما دون قصد ، الى شائعة المشروع المسند اليه الاشراف عليه ، وعندما يوضح لهم ان الوضع لم يحسم بعد ، يعرضون عليه امكانياتهم واستعدادهم للتعاون معه ..

همس اكرم في اذنه وسط تهليل المهنئين : اظن ان مدير المركز يستحق

منك كلمة شكر .. أومأ (ص) متهكما : يستحق طبعا ..

ثم متمتما : رغم انه حقي ..

ارتفع صوت (ص) مستأذنا من جموع المحتشدين ، للذهـاب لسيادة المدير ، لشكره على هذه المكرمة النبيلة التي خصه بها ..

* * *

شد على يد المدير شاكرا ، في حضرة صلاح عبد الرشيد .. اوقف المدير سيل تشكراته : لاتقل هذا يارجـل .. هذا حقـك ، لكفاءتـك وتفانيـك في عملك ..

تدخل صلاح مداهنا : والله انا طول عمري اشيد بكفاءة الاستاذ (ص)

ـ لكن يجب ان نعد لك احتفالا يليق بهذه المناسبة ..

قال المدير ، وايده صلاح في تفكيره . سر (ص) بهذا الاهتمام ، وتحرك منصرفا ، فرافقه المدير حتى الباب ، هامسا اليه : لقد سجلت اسمك في المشروعين اللذين اشرف عليها .. وسيقدم لك الصراف مبلغا متواضعا ، واظنك قد اقتنعت الان بمشروع المحاصيل السكرية ..

ـ لقد وافقت عليه في المستندات التي ارسلتها للمؤسسة

ثم مستدركا : لكني لم أؤدِّ اي عمل بعد ..

ـ ستؤدي ياسيدي كثيرا في المستقبل .. فلا تنزعج ..

* * *

تأملت حركة الغادين والرائحين بالقسم ، من وراء مكتبي .. كان فيض التهاني مازال متدفقا ، طوفان احضان التقرب مازال مسيطرا ، وحركـة الزوار كانت في ادنى مستوياتها . فما هو الجديد الذي طرأ ؟

اجتاحني دوار خفيف . شعرت وكأني اجري ، الهث ، ثمة تيار قوي يجذبني اليه بقوة خفية ، فيحول ايقاع حياتي الرتيب الى ايقاع صاخب لم أعتده من قبل . احداث يلطمني وقعها كموجات البحر التي لاتهدأ . عالم

جديد الجهة ، يجيش بحركة صاخبة لم آلفها . اندفع فيه . اعيشه بكل ذرة من كياني . اتجرعه حتى الثمالة . أنا المحروم ، اسير بحيرة حياتي ، الساكنة ، الراكدة ، الاسنة ، التي كنت أرقب فيها سنوات عمري ، تتسرب امام عيني ، مهدرة ضائعة ، داخل انابيب الاختبار والمراجع أو بين شكاوى زوجتي المستمرة من تكاليف المعيشة المتزايدة ، ومتاعب الاسرة وتربية الاولاد .. لااملك ان اوقف ضياعها ..

فهل املك ـ الان ـ ان التقط انفاسي لافكر مليا فيما يحدث ، وأنا أرى الثمار من حولي تتدانى ، وما علي الا ان اقتطف منها مايحلو لي ؟ ..

هل املك ؟ !

* * *

تقبل (ص) تحية الصراف مرحبا . طلب له زجاجة مياه غازية . قدم له الصراف استمارتي صرف ، مدون في كل منها عدد من الاسماء . كان مقيدا امام اسمه في الاولى مبلغ ثمانون جنيها ، وفي الثانية مبلغ خمسون جنيها .

وقع (ص) امام اسمه في الاستمارتين . سلمه الصراف مائة جنيه ، بعد أن خط علامة صغيرة امام توقيعه . نبهه (ص) الى خطئه في الحساب ، فما يستحق له من حاصل جمع الاستمارتين هو مبلغ مائة وثلاثون جنيها ، بينما قبض مائة فقط .

اوضح له الصراف بهدوء انه لم يخطئ ، لان سيادة المدير خصم من الثمانين الاولى عشرين جنيها ، ومن الخمسين الثانية عشرة لصندوق المشاريع الذي يشرف عليه سيادته ، ويقدم منه للسعاة ولبعض العاملين الذي لم يقيدوا في أي مشاريع بالاضافة الى الاجتماعات والمناسبات الخاصة طبعا ..

شكر (ص) للصراف توضيحه للامر . حيا اكرم الصراف رد الرجل تحيته .. بابتسامة : ياعم انت واصل .. ثم جمع مستنداته وامواله في حقيبته ، وانصرف ..

قال (ص) لاكرم : اهكذا تمضي الامور اذن ؟ ..

ـ تفكير منطقي من سيادة المدير .. فيه نوع من التكافل الاجتماعي .

امسك اكرم بذراعه : يجب ان تستفيد مما ترى في مشروعك .. مديرنا رجل محنك ، يحسب كل شئ .

هز (ص) راسه موافقا . ضحك اكرم : وسأدلك أنا على اسرار لغة عالم المشاريع .. عندما حييت الصراف ، فقال لي «ياعم انت واصل» .. ومغزى هذه العبارة ان هناك زيادة لي في كشوف المشروع .. أما اذا ـ لاقدر الله ـ قال «ياعم أنا مليش دعوه ..» .. فهذا يعني ان هناك اذى ما ، قد يكون تخفيضا في المبلغ ، او استبعادا من المشروع ..

انفجر (ص) ضاحكا : وانا الذي ظننته حوارا عاديا ..

وكان لسان حاله يقول «ما اشد سذاجتي ..» ..

* * *

قرب مواعيد الانصراف جاء اكرم متهللا : للمرة الاولى منذ فترة طويلة يدعونا سيادة المدير الى حفل جديد يوم الخميس المقبل .. ولم يمض على الحفل السابق سوى ايام قليلة ..

ابتسم (ص) بحبور ، وفكر .. «ينبغي ان ازور اليوم ابي لاطمئن عليه فالامور في العمل تجري على خير حال» .

* * *

كانت الشوارع تتثنى ، تلتف ، تضيق ، تبدت له كشراك عنكبوت يغوص في مساربه المتشابكة ، ويضيع . كاد ينزلق ويقع ، عند عبوره احد افخاخ المجاري التي واراها الظلام ، بينما انبعثت قرب نهاية الشارع

اضاءات متناثرة ، من ثلاثة محلات متجاورة . غذّ خطاه حـذرا ، متتبعا موسيقى صاخبة ، تسري في الاجواء المحيطة ، شارخة صمت الحي القديم في مثل هذا الوقت بعد مغيب الشمس .. كان يشغل هذه الدكاكين الثلاثة في طفولته كواء وبائع فول وبقال ، فجأة تحول الدكانان الاولان الى (بوتيك) يعرض البضائع المستوردة ، أما البقال فقد تحول الى محل ادوات كهربائية يبيع شرائط الاغاني المصرية والاجنبية ويؤجر شرائط الفديو . أغرقته رائحة العـطن ،(كان يهـرب من هذا العـطن الى حقول الجـامعـة خـلال أيـام الدراسة) ، تأفف نزّ عرقاً . جفف وجهه ورقبته ضجرا .. «لماذا افكر ، في زيارة الاسرة في هذا الجو الضـاري ؟ .. اما كـان يمكن ان انتظر حتى المساء ؟ ..»

تعثر عند عبوره مدخل البيت «كيف نسيت امر سلمة المدخل المتآكلة . » سقط في الظلام . توقف لاهثا اعتادت عيناه الظلمة .. «هنا كانت تسكن ام سيد اشعلت خيالي في فترة المراهقة بقميصها المنزلي ذي الصدر المفتوح ، وعريها المفضوح دون استحياء امامي .»

تحرك خطوة . امسك الدرابزين المخلخل . اهتز في يده . صعد ببطء ، «متى انتقلت من البيت ؟ متى هجرت حجرتها ؟ لم اعد اذكر» ، طالعه باب شقتهم مفتوحا ، لم يره يوما مغلقا ، وفي الداخل ، من وراء باب الحجرة الجانبية الموارب كان الاب ممددا على سريره ، «لطالما شاهدته هكذا مرارا ، وانا صغير ، خلال فترة القيلولة ، هل كان نائما الان كعادته ؟»

مال ناحية المطبخ . رأى امه مندمجة في غسيل الصحون بعد الغذاء . تنحنح قال : السلام عليكم ..

التفتت . انزلق طبق من يدها . رانت دلائل الفرحة على وجهها . جففت يديها في جلبابها . فتحت له ذراعيها . دمعت عيناها وهي تستقبله بينهما : اهلا ياحبيبي

شعر بسخونة جسدهـا وهو يحتضنهـا . قبلها «هـل كانت تبكي» ؟ ،

امسكت يده . جذبته الى حجرة النوم الخالية ، كعادتها القديمـة ، حتى لاتزعج اباه .

جلسا متجاورين . كان الذباب يعف بالداخل . تلمست بحنان : الحمد لله أن صحتك بخير ..

- كيف حال ابي ؟

- اكتشف الطبيب ان السكر بدأ يرتفع ثانية .. وهو يرى ضرورة اجراء تحاليل ثانية له وبسرعة ..

أخـرج منديله . جفف بعض حبـات العرق التي نضحت عـلى وجهـه ورقبته . تناول جريدة قديمة استعملها للتهوية امام وجهه . شاهد الجدران وقد تآكل دهانها وتقشر في اكثر من مـوضـع . ظهـر شق طولي في الجدار المواجه ، بينما تكسر زجاج النافذة «هل تبدو هذه الدلائل وكأنها نذير بشئ ما ؟»

التفت الى وجه امه . تسربت بعض خصلات بيضـاء من شعرهـا من منديل الرأس الاسود . بدت بعض تجاعيد على جبهتها واسفـل عينيها ، بينمـا ترهـل جسدهـا ، وبـرزت من الجلباب بعض الثنيـات الضخمـة بوضـوح ..

قال : اذا كان هذا رأي الطبيب .. فيجب ان نفعل ..

صمت . سقط في لجة التفكير .. «كيف نوفر ..»

مالت عليه : اجهزلك غذاء ؟ ..

« طيبة . طبيعتها لم تتغير . همها الازلي تجهيز الطعام لنا ، وتسميننا»

- تغديت قبل ان آتي اليكم .

- والمـدام والاولاد .. كيف هم ؟ .. اكيـد سلوى كبـرت واصبحـت عروسة .. أما زكي وسالم .. هل يتذكراننا ؟ ..

أومأ برأسه . اغرقه العرق . راح يجففـه متوتـرا «هاهي الام تـطرق المواجع ثانية دون ان تدري ..»

تمتم متخاذلا : ابدا .. حتى الاطفال يرغبون في رؤيتكم ولكن ..

استمرت الام وكأنها لم تسمعه : حتى عمك نفسه يتعرف على اولادك ... بالمناسبه اولاد عمك عبد الحميد دائما يترددون علي ويجلسون في حجري .. اكبرهم في مدارس اجنبيه ومع هذا يترددون علينا .. يبدو انك تخجل من زيارتنا بالاولاد .. ام ان امهم لاترغب في ذلك .. على أي الاحوال .. ابوك دائما يقول اولاد (ص) اولادنا ، يحملون اسماءنا ، وسوف يأتون الينا ان عاجلا او آجلا .

لحـظة صمت . اندفـع يقول : الحقيقـة انا المسؤول عن عدم مجيء الاطفال .. المدام دائمـا تلح علي وهم ايضـا .. ولكن التقصير بسببي .. ظروف عملي ..

احس ان الدائرة تضيق حوله . كوّر في يدهـا نصف ماقبض اليـوم . حاولت الرفض والتمنع عـدة مرات وهي تـردد حالتنـا بخير .. لانحتـاج شيئا .. المهم يكفينا ان نراك

بدأ حركته نحو الباب : ليتول اخي امر التحاليل .. وسآتي قريبا ثانية ..

لحقت به قرب باب الغرفة : حاول ان تبحث عن عمل يناسب اخوك بدلا من ضياعه في الثانوية .. لانه لا (طال) جامعة ولا بيفكر في اعادتها ولا لقي وظيفة .

عبر حجرة ابيه . مازال مستغرقا في النوم . هرول الى السلم . دهمته حرارة الجو . بدأ يهبط . كانت امه تلاحقه بتذكيره بضرورة الاهتمام بأمر اخيه ، وهو يردد : سأحاول .. طبعا سأحاول ..

(٨)

عاد (ص) الى البيت . رأى زوجته تتهادى كعارضة ازياء على سجادة

المدخل ، كانت تجرب حذاءً جديدا ، اسود اللون ، لامع الجلد . شاهد وراءها على مائدة الطعام ، عددا من الاكياس الجديدة الممتلئة .. داهمه يقين انها مشتريات جديدة ..

ابتسمت في وجهه : مارأيك .. اليس جميلا ؟

انتزع ابتسامة : جميل طبعا ..

حطت نظراته على الاكياس المتناثرة على المائدة . قالت . كمن قرأت تفكيره : قضيت اليوم كله في التسوق . اخذت اجازة ..

- والنقود من اين حصلت عليها ؟

ضحكت باستهانة : اقترضت مبلغا من اخي الذي عاد من الخارج .. فالفرج ات باذن الله ..

جلس . تحسست يده الخمسين جنيها في جيبه . فكر «هاهي الامواج تتلاحق ، تتدافع في كل اتجاه .. حتى زوجته العاقلة ، المنظمة بدأت تصرف ببذخ ، طمعا في اموال المشروع القادمة .. فلتهدأ ، ولتتقبل ما يحدث بهدوء ، ومن قال انه يفهم شيئا فهو في الحقيقة جاهل ..

حط بصره على زوجته ، كأنه يراها للمرة الاولى .. كانت قصيرة القامة مترهلة الجسد ، تبدو حين تمشي وكأنها تنوء بحمل ما ..

- اشتريت لي فستانين ، وحقيبة يد جلد طبيعي ..

وضعت الحذاء ، بعد ان خلعته في حقيبته البلاستيكية . استطردت : وطبعا لم انسك .. اشتريت لك قميصا وربطة عنق رائعة ..

فكر وهو يتناولهما انه سيرتديهما في الحفلة القادمة .. شكرها . رآها تفتح بقية الاكياس . عرضت عليه مابداخلها اشتريت لزكي بلوفرا .. ولسالم قميصين يحتاجهما للمدرسة .. ولسلوى فستانا وحذاء ..

تمتم : رائع .. رائع ..

نحى القميص وربطة العنق جانبا . نهض الى الحمام . اغلق الباب .

واجه المرآة .. خلع نظارة النظر الطبية .. بدت عظام وجهه بارزة . عيناه صغيرتان ، غائرتان . بينما نحل شعره عند مقدمة الرأس ..

ابتعد قليلا . عاود النظر ثانية «.. لست عجوزا . لم يخط المشيب شعري حتى الآن .. افلا يحق لي ان اعيش حياتي وان استمتع بها كما يفعل الاخرون ؟ ..»

بدأ يغتسل امام الحوض . انعشه ملمس المياه الباردة لوجهه ورأسه . بدأ يدندن بأغنية شائعة ..

* * *

جاء يوم الخميس سريعا ..

ارتدى (ص) القميص الجديد تحت بدلة مناسبة ، نظفتها زوجته بفرشاة الملابس وساعدته على ارتدائها ، ثم علقت بأنه يبدو كعريس ، باستثناء تكور كرشه وبروزه وسط جسمه النحيل ..

اخبرها عندئذ ان المدير دبر هذا اللقاء لمقابلة عدد من المسؤولين ، حتى يتعرف عليهم ، وتتوطد علاقته بهم .. وعندما سألته متى سيعود ، اجابها بأنه لايدري ، وان عليها ان لاتزعج نفسها وتنتظره ، وان تنام .

* * *

استنشق عبير الياسمين ، وهو يعبر حديقة بيت المدير . خلع حذاءه من تلقاء نفسه هذه المرة ، فقد اصبح صاحب خبرة . ولج حجرة الحفل .. كانت الاضواء تتلألأ والموسيقى تشدو ، والضحكات ترتفع ، والاصوات تصخب ، لكنه حاول منذ الوهلة الاولى أن يخترق بصره جمع الحاضرين بجسارة ، ان يحاصرها ، ان يمسك بها ، لينفردا معا ، وحدهما بعيدا عن الاخرين ..

سمع صوتا الى جواره يسأل : هل تبحث عن احد ؟

كانت عينا اكرم الماكرتان تتابعانه . استطرد : مرحبا بك . انا اعرف انك

تبحث عن المدير .. وسأصحبك اليه ..

هز راسه لتحيته . مشى بجواره متثاقلا ، كمن يرزح تحت وطاة اعوام عمره الخمس والاربعين ، قابل المدير بوجه باش . شكره مرتين لاهتمامه بأمره . اجلسه الرجل الى جواره قائلا : واليك بشرى سعيدة .. لقد علمت من مصادري الخاصة ان المؤسسة اجازت مشروعك .. ويمكنك ان تبدأ العمل بمجرد وصول اخطارهم اليك .

تدفقت الفرحة من القلب ، فتلألأ الوجه ابتهاجا : اشكرك جدا .. لكن هل سيتأخر هذا الاخطار ..

رفع المدير كأسه . تناول جرعة : لن يتأخر عن السبت أو الاحد على أبعد تقدير ..

مد (ص) ذراعه . تناول زجاجة بيرة مثلجة ملأ كوبا امامه . بدأ يتجرعها ببطء ، وهو يهز رأسه طربا على انغام الموسيقى .. فها هي الدنيا تفتح له ذراعيها وتستقبله بالشوق ، بعد ان اولته ظهرها طويلا خلال سنوات عمره العجاف ..

اكتشف اكرم يرقص مع احدى الزميلات فدارت عيناه بحثا عن سعاد .. رآها قادمة هناك قرب المدخل في فستان ازرق ، تحليه زهرات عباد الشمس . برز عنقها النحيل من فتحة الفستان واستطال سامقا مترفعا . حط بصره على وجهها الدائري . تلاقت عيناهما . ثمة قوة خفية تجذبه . جعلته يطير اليها ، متناسيا كل ماعداها ..

وجد يدها تنام بين يديه للحظة ، قالت : مساء الخير .

ـ مساء الخير ..

نظر الى جميع الحاضرين .. اللاهين في عالمهم الخاص . قال : ما رأيك ان ننسحب في هدوء ، لنجلس في الحديقة دون ان يدري احد ..

أومأت موافقة . سار معها ، لا لم يكن يسير ، كان يطير مهفهفا بجناحيه

الى جوارها بين ظلال الاشجار .. عندئذ احس ـ ربما للمرة الاولى ـ خلال عمره المديد أن العالم ملك يديه ، يستشف منه نبض الحياة المستشري في نجيل الارض والاشجار والعصافير وبين السحب العابرة .

قال : كأني اعرفك منذ زمن ..

ابتسمت . شعر بالخجل ، فحاول تغيير مجرى الحديث : لقد ابلغني المدير بقبول مشروعي .. وانني سأبدأ العمل به من الاسبوع القادم ..

مدت يدها تلقائيا مهنئة . احتجزها بين يديه . عضت شفتها السفلى قال : هل تعرفين انك ضمن العاملين في المشروع .

شكرته . اطلق يدها . جلسا في نفس المكان القديم . وضعت ساقا فوق الاخرى . حملقت امامها . بدا وجهها متجهما . سألها : مالك ؟ .. تغيرت فجأة ..

واجهته بهدوء : انت اول انسان يمنحني هذا الاهتمام .. في البيت امي تشكو آلام مرضها بعد وفاة ابي .. اخوتي يهتمون بي فقط كمصدر لمصروفهم .. علاقاتنا مفككة مع بقية الاسرة لخلافات قديمة .. وفي العمل .. كل ينهش الاخر ، كأننا اعداء .. حتى اصبحت اللحظات الوحيدة التي كنت الهو فيها ، وانسى نفسي هي في هذه الحفلات ..

مرت فترة صمت . لم يحاول ان يكدر صفوها بأي كلمة ، كان يريد لكلماتها أن تنساب مع الليل ، كنسمة ندية ، ترطب قيظ حياته المستعر ..

عادت نبرات صوتها الى الظهور : ثم ظهرت انت .. ومنحتني هذا الاهتمام ..

قفزت الى خياله بعض مشاهد مماثلة ، سبق ان شاهدها او قرأ عنها في كتاب ما ، فأحس انه مطالب ان يقول شيئا ما ، فقال : اعتقد ان لدي الكثير مما اود ان اخبرك عنه .. لكن المكان لم يعد مناسبا لنا .. لماذا لانعلن الانفصال عنهم ..

ـ ماذا تعني ؟

ـ انا افضل ان نلتقي في مكان ما على النيل .. في كازينو مثلا .. لنتحدث بحرية ، بعيدا عن متابعة عيون الاخرين ..

لم تجب التزمت الصمت . اكمل : يوم السبت القادم بعد مواعيد العمل ... سأنتظرك في الكازينو الاول بعد الكوبري على اليمين .. بجوار النهر مباشرة ..

لم تنظر اليه ، بينما هلّ عليهما بعض الزملاء من جنح الظلام ، فأومأت موافقة ..

(٩)

كان يوم السبت حافلا بالاحداث ..

في الصباح الباكر زاره رئيس قسم التدريب بالمركز . تناول الشاي ، ثم اخبره بانهم كانوا يعدون خطة تدريب المركز للشهور القادمة ، وقد تم اختياره لالقاء عدد من المحاضرات عن الخسائر الناتجة عن الافات في المحاصيل المهمة في مصر وآثارها على الاقتصاد القومي كما رشحه لالقاء عدد اخر من المحاضرات في برامج تدريب الافارقة في مصر ، وقدم له جدولا يوضح المحاضرات المسندة اليه وتواريخها ومواعيدها واردف وهو ينهض : اذا لم يناسبك اي موعد ، ارجو ان تتصل بي ، وسأعمل على تغييره وطبعا هناك مكافآت متواضعه لهذه المحاضرات ..

شكر (ص) لاهتمامه . حياه الرجل وانصرف . قال اكرم ، الذي تابع نهاية اللقاء : لاتنسَ وضع اسمه في اول استمارة صرف من المشروع .. فهو يستحق .

هز (ص) رأسه موافقا ، ثم تنبه لنفسه .. لقد وافقت ليس لانه رشحني لالقاء محاضرات ، وانما لاني سوف احتاج اليه فيما بعد في تنظيم برامج ارشادية ..

ثم داهمه سؤال مفاجئ «هل بدأت اكذب على نفسي ؟ !»

زاره ايضا علي زكي ، هناه بما ناله من حق بعد طول صبر .. قال بعد فترة صمت : رحم الله أيام الدراسة ، كنا نناضل لنتحرر من سيطرة الاساتذة المفروضة علينا . اما اليوم فالقيود اكثر ..

رمق (ص) متأملا : لاعرف لم افضفض لك عما يجيش به قلبي ، رغم ان احدى القواعد الوظيفية المهمة هي ان نخشى الاخرين .. ربما ثمة ود يربطنا ، رغم انك كنت منطويا ، بعيدا عنا خلال ايام الدراسة ..

جذب (ص) من يده كعادته كمن تذكر : هل تصدق ان مديرنا الملعون سادر في اضطهادي .. جاءت لقسمنا منحتان للسفر للخارج ، فرشح لهما زميلين من اقسام اخرى .. من رجاله طبعا ..

توقف علي بغتة منزعجا : دائما اثقل عليك بمشاكلي الخاصة ..

ثم استطرد : لقد سمعت انك ستكون مشرفا لاحد مشروعات المؤسسة لذا يجب ان تكون على حذر .. لقد قرأت ان هذه المؤسسة تنظم بحوثا مشتركة مع العدو ، عن المحاصيل التي تنمو في المناطق الجافة .. لذا يجب ..

قاطعه (ص) مبتسما : ان ثوريتك القديمة تهيئ لك ان الاعداء وراء اي عمل لانقوم به وحدنا .. ان المؤسسة تدعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد واعتقد اننا كبار بما فيه الكفاية ، لكي نعي مانفعل وان نستفيد من الخبرات والامكانيات التي تعرض علينا .. ولاتنسَ ان هذه المعونات تخضع لنظم ودراسات على اعلى مستويات ويتم اعتماد بروتوكولات تعاون دولية في هذا الشأن .. وكلها امور تخضع لقواعد واسس تضمن سلامة هذه البرامج .. ولاتنسَ ايضا ان مجال عملنا هو العلم والبحث العلمي .. لقد اصبح تبادل المعلومات العلمية والخبرات امرا متاحا في جميع انحاء العالم .. ونحن نتعامل بصدر وعقل مفتوحين ، ونعلم ان هناك من يعمل معنا وان هناك من يعمل مع الاعداء لكني اكرر اننا قد نضجنا بما فيه الكفاية ،

لكي نعي مانفعل ..

اطرق علي : عموما اهنئك بالمشروع .

واستأذن للانصراف ، متعللا بالعمل ..

* * *

توالت بعد ذلك زيارات الزملاء من اقسام اخرى . كانوا يتوددون اليه بعضهم حكى له تاريخه الوظيفي ، والظلم الذي حاق به ، وراتبه المتجمد ، ورغبته الدفينة في العمل الحلال ، بعضهم هنأه وتحدث في موضوعات شتى عرف فيما بعد ان عددا من الزملاء لم يحضروا لتهنئته بالطبع ابلغه بذلك اكرم مذيلا كلامه بانهم حاقدون على وضعك الحالي ـ لكنهم جميعا اشتركوا في انهاء الحوار بعرض خدماتهم عليه للعمل في المشروع ، فاضطر (ص) ان يعدهم ـ مكررا تقريبا ذات الكلمات لكل منهم ـ بأنه سيفكر في الامر مليا ، ليرى امكانية الاستفادة بامكانياتهم ، وسيخبرهم باذن الله .. عند ئذ عاوده الاحساس بانه يكذب .. لكنه اقنع ذاته بأنه صادق النيـة تمامـا معهم ، فالفرصة مازالت متاحة للاستفادة من قدراتهم .

* * *

توالت عدة طرقات على الباب . دخل ساعي المراسلات مهللا : سعادة البيه المدير . سعادة البيه ..

نهض (ص) خجلا . شد الرجل على يده بحرارة : والله اننا جميعا نشيد بمناقبك ، وحسن اخلاقك ..

فتح حقيبته السوداء البالية ، اخرج ورقة منها : معي منشور اداري اوزعه على الاقسام المختلفة ، وهو يخص سيادتك ..

قدم له المنشور . قرأه (ص) ساهما ، كان يتضمن تشكيل لجنة عليا لتقييم بحوث العاملين بالمركز ، برئاسة مدير المركز ، وعضـوية (ص) مـع زميلين اخرين من رؤساء الاقسـام ، وموضـح به مـواعيد اجتمـاعاتهـا

الدورية ، وبدل حضور جلساتها ..

وقع له باستلام المنشور ، وشكر الرجل ، الذي ارتفع صوته : لازم آخذ الحلاوة يابيه .. حلاوة رئاستك للقسم .. الف مبروك يابيه ..

تطلع (ص) اليه . كانت عيناه واسعتين . بدا قميصه الابيض الداخلي ـ تحت بذلته الصفراء القديمة ـ ملوثا بالعرق . منحه خمسين قرشا . ردد الرجل خلال انصرافه : ربنا يخليك لنا يابيه .. ويوسع رزقك .

* * *

عند الظهيرة هبط على المعمل الدكتور مرسي مرزوق بجسده الضخم ، وصوته الجهوري ، وحقيبته السوداء المنتفخة التي لاتفارق يده ..

اندفع اليه اكرم صالح : أهلا ياأستاذ . تفضل لقد شرفت المركز ..

ـ اهلا بك يااكرم ..

انفلت الى (ص) فاتحا ذراعيـه : قلت والله لازم ازورك مخصوص .. لاهنئك مرتين ، على رئاسة القسم ، وعلى قبول مشروعك ..

احتضن (ص) بشدة ، عند ئذ تسللت الى انفه رائحة عرقة ، مضمخة بدخان السجائر ، ثم جلس بجواره . وقال لاكرم : ها يا اكرم .. لابد ان تزورني حتى نتفق على خطة عمل لانهاء رسالتك الجامعية يااخي .. يكفي انك تعمل مع اخي وصديقي (ص).

ـ سأزورك باكر باذن الله .. أم تفضل وقتا آخرا ؟

ـ لا .. لا .. غدا مناسب جدا .

التفت الرجل الى (ص) بوجه جاد : بالمناسبة في اجتماع مجلس القسم الذي ارأسه بالكلية ، والذي انعقد يوم الخميس الماضي ، رشحت سيادتك لكي تعطي بعض المحاضرات التطبيقية لطلبة الدراسات العليا .. فهل يسمح لنا وقتك بهذا الشرف .

تبادل (ص) النظر مع اكرم : العفو ياأستاذنا .. هذا شرف لي لم اكن

اطمح اليه ..

قاطعه الدكتور مرسي : لاتقل هذا يارجل .. فانت خبير فاضل ..

وهكذا مضى اللقاء على وتيرة واحدة من المجاملات المتبادلة ، وفي النهاية قال (ص) وقد بدأ يستوعب قواعد اللعبة : أرجو أن تسعدنا يادكتور مرسي بقبول الانضمام الى اسرة المشروع المسند الي ، لكي نستفيد من خبراتك الاكاديمية ..

ـ لكني لااستطيع .

ـ ونحن نطمع ان تحاول وان تمنحنا هذا الشرف ..

ارتفع صوت الرجل جهورياً مقهقها : والله هذا شرف لي .. هذا شرف لي ..

ثم نهض مستأذنا ، متعللا بأن وراءه محاضرات في الجامعة ، فرافقاه حتى الباب ، وهو يمضي متمايلا بحقيبته الثقيلة ، التي لايدري احد ما تحتويه ..

قال لاكرم ، وهما يأويان الى مكانيهما : يبدو ان نبوءتك ستتحقق .. وستنهي رسالتك بفضل اشتراك الاستاذ مرسي في المشروع ..

ضحك (ص) بانشراح ، لكنه لم يتأكد اذا كان عرضه على د . مرزوق بدخول المشروع يرجع الى ندبه للتدريس بالكلية ، أم الى سمعة د . مرزوق ، أم لموضوع اكرم ..

* * *

حضر مندوب المؤسسة الشاب قبل موعد الانصراف بقليل . كان (ص) وحيدا بالمعمل . قدم اليه مظروفا أبيض ،كبير الحجم ، وهو يقول : مبروك يا أستاذ .. مشروع سيادتك وافقت عليه المؤسسة ..

تناول (ص) المظروف من الشاب ، شعر بأرتعاشه طفيفة تسري في يده .. دعا الشاب لمشروب سريع مثلج ، لكنه اعتذر بأدب جم ، ثم

انصرف ..

اصبح (ص) وحيداً ثانية . تهالك على كرسيه غرق في لجة التفكير . احسّ أن هذا المظروف هو المفتاح السحري لعالم حقيقي آخر ، غامض ، وانه ـ ابتداء من هذه اللحظة ـ سيلج مجاهيل هذا العالم . ليستمتع بالحياة ، فانتابته الرهبة لوهلة ، فكر خلالها في التراجع ، وفجأة تكالبت عليه وجوه سعاد ، زوجته ، اولاده ، اكرم ، مدير المركز ، زملاؤه بالعمل ، والاستاذ مرسي ، ومن بعيد انبثقت شخصيات أفراد اسرته أبوه ، امه ، واخوته ، وحاصرته الوجوه والشخصيات . فاستعاد كلمات زوجته «لقد ارسل الله لنا هذه المؤسسة في الوقت المناسب لانقاذنا» وعاودته همسة سعاد «ثم ظهرت انت .. ومنحتني هذا الاهتمام» فمزقت اصابعه المظروف الخارجي بعزم قوي ، واخرج ملفا رماديا من داخله ، وجلس يطالع محتوياته بحماس واصرار على أن يعيش حياته ، وأن يخوض غمارها بقلب جسور ، بعيدا عن عبث حياته الماضية الخاملة ..

(١٠)

كان الجو حارا ، يفح سخونة ..

بصعوبة شديدة وجد (ص) سيارة اجرة مشتركة اوصلته للكازينو . مشى مرهقا . هبط عددا من السلالم . واجهته انعكاسات الشمس الحادة على صفحة الماء . أغمض عينيه للحظة . اختار مائدة في الركن ، تطل على النيل مباشرة ، بينما تناثر حوله عدد قليل من الموائد المشغولة ، غالبيتها تتكون من ثنائيات ، شاب وفتاة ..

مدد ساقيه أسفل المائدة . فوجئ بالنادل فوق رأسه : ماذا تطلب سعادتك ؟

كان القيظ شديدا ، والصداع ملأ الرأس ، وبالحلق جفاف حاد ، بينما عابثته رغبة خبيثة في التحرر من ملابسه ، والاسترخاء في ماء النيل البارد ،

ولو اخبر النادل بحقيقة مايرغب لظنه مخبولا ..

قال (ص) : بيرة مثلجة ، وبعض الفول السوداني ..

أغمض عينيه .. حاصرته العيـون من كل جـانب ، وتفتحت الافواه ، فانثال فيض الكلمات هادرا زاعقا ، وعمّ الصخب ..

فتح عينيه ببطء اكتشف سعاد بجواره تتأمله باسمه الثغر . اعتدل في جلسته : متى جئت ؟ ..

اخرجت منديل كلينكس برتقالي اللون . جففت بعض حبات عرق نضحت تحت ذقنها : منذ لحظات قليلة .. فاتيح لي ان اراك وانت مرهق ..

أخرج (ص) منديله . فرده . مسح به وجهه : لاتستطيعين أن تتخيلي مقدار ارهاقي .. مقابلات عديدة .. مئـات الكلمات .. الجـادة والهازلة ، المرحبة والمودعة .. وبمضي الوقت اوقن ان داخلي انسانـا آخر يتصـرف ويقول ، حتى انني لم أعد اشعر بالكلمات وهي تخرج من فمي .. بل يحدث كثيرا لوتذكرتها بعد ساعات ان اتحير واتساءل .. لماذا قلت ماقلت ؟ !

ثم ضاحكا وهو يرى الجرسون يضع زجاجة البيرة امـامه : وداخـلي انسان يعربد ايضا ..

التفت اليها : سنتغذى طبعا .. مارأيك ؟

لم تجب ، فطلب غذاء لشخصين . غادرهما النادل . تطلع اليها .. كانت تنظر الى النيل . شاهد بلوزتها البيضاء الشفافة تشي بما تحتها ، فتخيلها امامه عارية ..

واجهته بغتة . غض بصره خجلا . احمر وجهه ، كأنها امسكته مذنبا بفعلته حاول التهرب من الموقف ، فقال : لقد وصلني اليوم إخطار موافقة المؤسسة على مشروعي ..

قالت بحياد : اعتقد انك بدأت تأخذ مكانتك في العمل ..

ملأ الكوب بالبيرة . تجرعه مرة واحدة . شعر بالبرودة تسري في احشائه الساخنه : لن تصدقي مايحدث لي .. كأني انسـان آخر يعيـد الاخرون

اكتشافه .

ساد الصمت لفترة قصيرة . رنا اليها بناظريه ، الى شفتيها الرقيقتين ، ثم هبطت نظراته ثانية ، الى بلوزتها الشفافة ، وانسابت على ثنيات جسدها متفحصة ، متحسسة ، فشعر بالرغبة تلسعه لاحتضان هذا الجسد و ...

انتبه وهي تسأله : فيم تفكر ؟

ضحك من أعماق قلبه : لن تصدقي لو اخبرتك ..

- تكلم .. ليس بيننا اسرار ..

جفف عرقه بمنديله ثانية . أين ضاع تحفظه التقليدي ؟ ، وهل يعري الحر رغبات الانسان الدفينة ويطلقها ؟ ، واذا كان الامر كذلك فهل تسمح له علاقتهما الوليدة بمثل هذه الصراحة الفاضحة ؟ .. فلنتريث قليلا ، ولنتمهل ، ولندع الايام تؤتي ثمارها بهدوء ..

قال بسأم : كأني لم اكن اعمل بالمركز من قبل .. ان الواقع يتكشف لي عن عالم آخر تحتي ، لم اكن اراه ، رغم انه موجود ..

- لايجب ان تخدعنا ظواهر الاشياء .. هل يصدق من يراني أن داخلي انسانة وحيدة ، حزينة تحمل هموما تناسب عجوزاً .

- من الآن ستتغير الاشياء .. سنستمتع بحياتنا ، ونلهو .. فلهذا خلقنا ولنقل للحزن وداعا .. وللحياة ان اقبلي ..

تطلعت اليه غير مصدقة .. كيف يتحدث بهذه الجراة ، وهي التي ظنته من قبل خجولا ، أم أن للحر سرا يسري كالسحر فيطلق الالسنة المقيدة من عقالها ؟

علقت بمرح : انت تأسرني بكلماتك ..

جاء الغذاء ، فاندمجا في تناوله . حكت له - ثانية - عن أمها المريضة واعباء اخوتها ، وظروف معيشتهم الصعبة ، بينما يتخيل نفسه منفردا بها ، يلتهمها باشتهاء ، ثم يغطي عري جسدها بعملات النقد الورقية .. وعندما استعاده الواقع ثانية تحت الحاح نبرات حكيها عن اسرتها ، أنصت

لامباليا ، ثم سرح فكره الى أبيه المريض وتذكر انه لم يزره منذ اكثر من اسبوع ، فقر رأيه على زيارة اسرته بعد توصيل سعاد ..

وهكذا اقبل على الطعام ، يأكل بنهم شديد ..

* * *

وسط القيظ انطلقت . عبر نفس الشوارع الضيقة الملتوية سـرحت . خلال لسع الشمس ولزوجة العرق تمشيت ، حتى انني عندما وصلت الى بيت الاسرة العريق تساءلت «هل حقا وصلت ؟»

شاهدت الاب مستلقيا على ظهره ، منزوياً ، منكمشا ، يرتفع شخيره بين فترة واخرى ، بينما برز وجهه ذابلا ، شديد الشحوب .

حاصرته رائحة الدواء . فاشتاق الى عبير النهر في الكازينو ـ سأل الام : كيف حاله ؟

تطلعت اليه . «هل كانت تلومني ؟» قالت : الحمد لله .. الشفاء من عنده وحده

ـ وما أخبار التحاليل ؟ ..

ـ تحمـل اخوك الاصغـر العبء كله .. ورغم ارتفاع نسبـة السكر في التحليل .. الا اننا نتابع العلاج كما أمر الطبيب ..

ـ ربنا يشفيه .. انا الحقيقة ..

يا ابني من غير ما تتكلم .. انا عارفة مشاغلك .. فقط لاتنسَ موضوع عمل اخيك .. لعل العمل يشجعه ويعيد الثانوية ..

ـ عمل اخي مسؤوليتي الشخصية .. فلا تنزعجي ..

هل نسي امر اخيه في زحمة العمـل حقا ؟ وكيف تـأتى لهذا الامـر ان يحدث ؟ راح يجفف عرقه مندهشا ..

كانت الايام تنقضي . وانا اهرول في ركابها ، والهث . ساعات اليوم لاتكفي مشاغلي وارتباطاتي ، احتاج يوماً اخر لكل يوم ، فلقد دخلت عالما جديدا زاخرا بالحياة بعد سنوات السكون . احسست ان رياح التغيير شملت كل شئ ، واعتقد اني تحولت الى شخص اخر ، ربما يحمل ملامح (ص) السابق ، لكنه مختلف عنه في كل شيء ..

كان المشروع مفتاح السعد لحياتي ..

بدأت الاموال تتدفق الآن بين يدي بغير حساب ، فتحت عددا من الحسابات في البنوك بأسمي وبأسم زوجتي ولكل من اطفالي الثلاثة ..

صارت علاقاتي اوسع ، وصار وقتي موزعا بين المحاضرات داخل المركز وخارجه (في الجامعة وفي جهات اخرى) ، كما تكاثرت اللجان التي كنت عضوا فيها ، بل ان بعض الجهات الخارجية طلبتني كاستشاري لها للنواحي الفنية (طبعا يسرت علاقاتي هذا الاتجاه) .

اضطررت ايضا ـ ان اجزل العطاء لاكرم ، لانه كان ينوء بحمل اعباء القسم وحل اي صعوبات أو مشاكل ادارية تعترض العمل ـ اقصد المشروع ـ ليصرف شؤونها ويستشيرني فقط في الضروريات ، ولم يخلف ظني ابدا ، ولم يسبب لي اي قلق كذا تغاضيت برغبتي حين شاهدته يحول جانبا من عمله الى صفوان صدقي وحسن لمعي والى اخرين من خارج القسم ، كما استجبت له عند طلب اضافة زميل وزميلة الى عمالة المشروع (وهما من قسم آخر) ، بل ولم اسأله عن مبرر الاضافة .

كما احتل مدير المركز جانبا هاما في عالمي الجديد ، وافادني بخبرته وحنكته بالمشاريع .. هكذا توطدت اركان مكانتي في القسم ، بعد ان وفرت له احتياجاته الاساسية من ميزانية المشروع ، كما اصبحت أحظى باهتمام جماعي في المركز لم يسبق ان شعرت به ، فصارت ورائي جبهة قوية

تساندني .

وانتشرت الشائعات حولي ، وصلني منها قرب تعييني نائبا لمدير المركز ، خصوصا بعد أن عينت مشرفا على بعض الاقسام التي يغادر مديروها الى الخارج ..

اسعدني كثيرا في المناسبات التي حضرتها ـ ان مكاني كان يتحدد في صدارة المكان ، واذا تحدث احد الحاضرين ، بدأ بالاشادة بمكانتي العلمية والشخصية ، وكان يحلو للبعض ان يلقبني بانني استاذه ، وانه تعلم على يدي ، وان كان كثير منهم لم يقابلني الامرات محدودة ، ولكني كنت دائم الابتسام ولم اشكك او اكذب كلماته .. وكانت الدقائق التي تعقب مثل هذه الجلسات مصدرا من مصادر سعادتي خاصة عندما استأذن متعللا باعبائي وسط الجلسة وبحجة ان موعدا قد فاتني أو سيفوتني فاذا بالجمع يقف ، ويسعى بعضهم لاختلاس لحظات جانبية منفردة معي خلال خطواتي المسرعة الى الخارج .. وقبلت الاشراف على عدد من الرسائل العلمية ، دون تذكر اسماء الدارسين او موضوع الدراسة كان الجميع يعيدون اكتشافي من جديد ..

لم تعد مفاجآت الحياة تثير دهشتي ..

كانت زوجتي سعيدة بحياتنا الجديدة ، رغم ابتعادي عنها وعن البيت والاولاد بحكم مشاغلي ، لقد نفست عن تطلعاتها القديمة ، فغيرت اثاث شقتنا بالتدريج حجرة حجرة ، وعندما اقترحت ان تشتري سيارة صغيرة لتناسب مركزي العلمي ، هنأتها على سعة افقها ، ورجاحة عقلها ، فالسيارة ستوفر لي وقتي ، وتيسر لي معاملاتي ، وتضيف الى مظهري بعدا جديدا ..

كما توطدت علاقاتي مع سعاد ، وبقدر ما اعطيتها اخذت .. لقد ادخلتني عالما مجهولا ، لم اتجرع يوما خمره المعتق ، فلما نهلت منه ، لم

أرتو ، وكنت دائما اطلب المزيد ..

هكذا تفتحت الابواب المغلقة امامي ..

* * *

وحمدت لي اسرتي اهتمامي بامرها ، فقد يسرت علاج ابي في مستشفى كبير متخصص ، وبدأت بوادر التحسن تظهر عليه ، وكنت اوالي اسرتي (امي بالتحديد) بالدعم المالي ، على فترات متقاربة ، فتكاليف المعيشة في ارتفاع مستمر ..

وتم تعيين اخي في معهد علمي اخر ، باتصال تليفوني بمدير المعهد ، بعد أن عينت زوجته ـ التي تعمل بالشؤون الادارية بمركزنا ـ مسؤولة عن الشؤون الادارية بالمشروع ..

وحين ارسلت لي امي ابنة عمي ، التي تخرجت حديثا في كلية التجارة ، لابحث لها ايضا عن عمل ، لم اخلف رجاءها ، وباتصالات مكثفة حققت رغبتها ، فاستلمت الفتاة عملها خلال اسبوع واحد ..

* * *

لكن الامر لايخلو احيانا من بعض المنغصات ..

حدث ذلك عندما كنت انتظر سيارة المشروع لتوصلني الى مبنى الجامعة ، فرأيت علي زكي مقبلا علي ، لحظة وقوف السيارة امامي ، فاضطررت لدعوته لتوصيله الى منزله . ركب شاكرا ..

اسرعت السيارة في طريقها . همس علي : اياك ان تخدعك اموال المشروع التي تقدمها لك المؤسسة .. انها قليلة اذا قورنت بما يحصلون عليه منا .. انهم يضربون النظام العلمي والامانة العلمية في داخلنا ، يفرقون بيننا ، يمزقوننا من الداخل .. هل يعجبك هذا التناقض بين زميلين في معمل علمي واحد .. احدهما في مشروع والاخر ليس كذلك ؟ .. قارن بينهما من حيث الدخل والامكانيات والعلاقات والفرص ..

توقف لوهلة ، ثم استطرد : هل تظن ان هذه المؤسسة جادة في التنمية .. انني اعتقد انها لاتقرأ تقارير المشروعات بل تدخرها لديها لحين استخدامها .. هل تعلم انهم حين يعتمدون ميزانية لمشروع معين فانهم يشترطون ان تجري دراسة الجدوى له بواسطة خبرائهم او بالاشتراك معهم ، وان يتم شراء معدات المشروع من بلادهم وان تشحن بواسطة ناقلاتهم .. هل تعرف كم يتقاضى خبراؤهم ؟ وما مقدار الرفاهية التي توفر لهم في بلادنا من ميزانية هذه المشاريع ؟ ..

انني اعتقد اننا من خلال هذه المشاريع ـ قد ارسلنا معلومات كافية عن محاصيلنا واصولها الوراثية وتطورها ، وبيانات كاملة عن نظم الزراعة والري والصرف وطبيعة التربة .. بل واعتقد اننا وضعنابأيديهم تقارير عن كل صغيرة وكبيرة تحت ستار العلم والتبادل العلمي في تقارير باركها كبار الموظفين والعلماء ، تحت شعار الانفتاح على العالم وتبادل المعلومات ..

انهم يطرحون مليون استمارة مطبوعة ـ باسم السلام والمحبة ـ علينا ، فنملأها بالبيانات عن انفسنا بأيدينا ، ونكتب فيها افكارنا وخبراتنا ورغباتنا ، لمجرد طلب فرصة سفر الى بلادهم لاشهر محدودة .. اما هم فيحصلون على هذه البيانات ، ويغذون بها الكومبيوتر ، لتبرمج وتحلل بأساليب معينة ، يعرفون منها كيف يفكر باحثونا ؟ ، وما هي طموحاتهم ؟ ، ويرسمون الخطط من أجل استعمار ثقافي وفكري لبلادنا ..

انهم يعاملوننا كبشر من الدرجة الثانية او الثالثة ، ويقدمون لنا الفتات ..

كنت مستفزا . سخرت من كلماته فورا ، وتناسيت حديثه الخطابي الطويل فتحديته : اتنكر انك تستفيد ايضا من هذا الفتات التي تتجاوز مرتباتنا بكثير ؟ !

ـ نعم استفيد .. وهنا تكمن المأساة .. ان نقص امكانياتنا ، وظروفنا

المعيشية الصعبة هو الفخ الذي يستغلوننا منه .. وحين نسقط بين الاموال نضيع ..

لوحت بيدي سأما : أرجوك .. انا لااقتنع بكلامك .

- ولكن لدي الادلة مما أقرأ ، ومما أرى .. هل سمعت عن التقرير الذي نشرته أحدى الدول الاوربية عن ..

قاطعته باصرار : أرجوك .. انني اختلف معك تماما .

كنت موقنا من حسده لي ولغيري ، لانه لم يسند له الاشراف على احد مشاريع المؤسسة ، لذلك يحاول تشو يه صورتها ..

تحملته ، صابرا بحكم علاقتنا القديمة ، حتى وصلت الجامعة ، فغادرت السيارة ، بعد ان اوصيت السائق ان يوصله الى منزله ..

(١٢)

شارفت السنة الاولى للمشروع على الانتهاء ، فحان موعد تقديم التقارير الدورية عنها .. اضطررت ان اخفف من ارتباطاتي لعدة ايام ، بل انعدمت ارتباطاتي نهائيا فالمعروف ان التقارير اهم ما في المشروع ، واذا تأخرت يتأخر الاعتماد المالي للصرف ، الذي يعتبر اهم مافي الموضـوع بالنسبـة للعاملين في المشروع ..

كانت تجارب المشروع تغطي عددا من الخطوط الزراعيـة في عدد من محافظات القطر . كثفت مأموريات الباحثين بقسمي وبالاقسام الاخـرى لاحضار عينات لاخضاعها للفحص المعملي ، لتسجيل وقائع هذه المرحلة في تقرير المشروع .

وصلتني اخبار مؤكدة من عدد من عيوني الخاصة ، أن بعض الباحثين يأخذون معهم في مأمورياتهم بعض الملاحظين الفنيين ، وهي فئـة معينة بالمركز ، ذات خبرة محدودة ، وظيفتها الاساسية تقديم العون للباحثين ، لا القيام بعملهم .. والمؤسف في الامر ، انهم قاموا بعمل الباحثين ، فقد علمت

ان الباحث كان يذهب الى بلدته ليقضي بها فترة المأمورية ، بينما يقوم الملاحظ باحضار بعض العينات المطلوبة من الحقول ووضع كل عينة في كيس يكتب عليه اسم الخط الزراعي ، ثم يعود الباحث والملاحظ المرافق ، ويصرفان بدل السفر المستحق عن فترة المأمورية ، بعد تسليم العينات المطلوبة ..

وهذا الوضع علميا مرفوض ، لعدم الاطمئنان للخطوة الاساسية في جمع العينات لكنني فلسفت الامر على نحو آخر ، فلم أهتم بمن جمع العينات ، بل اكتفيت بأنها سلمت لي عن طريق باحث متخصص ، وهذا يكفل الاطمئنان الى اسلوب جمعها ظاهريا ... والا فما معنى اعتراضي ، أن هذا الباحث تنقصه الامانة العلمية ، بما يترتب على ذلك من اعادة المراجعة ، واعادة تجميع العينات وما سيتبع ذلك من تأخير للتقرير والاعتماد .

كما تكشف لي خلال نفس الفترة حقيقة اخرى تورط فيها ايضا الباحثون ومساعدوهم ، فبينما كان المفروض ان يقوم الباحثون بالتجارب المعملية للعينات التي يفترض انهم احضروها ، كانوا يعتمدون في هذه التجارب على المساعدين ، محدودي الخبرة . فهل كنت اتوقف بما يترتب على ذلك ايضا من اعادة خطوات البحث ، فيضيع عام كامل بما يؤخر التقرير ؟

اكتفيت هنا ايضا باعتماد الباحث ، ومسئوليته عما قدم من تجارب ، على الاقل كنت افضل من غيري ممن سمعت عن تصرفاتهم ، فقد بلغني ان مدير احد المشاريع اخذ نتائج البحوث الدراسية لبعض العاملين في قسمه ، فاصبحت نتائج الدراسة هي نفس نتائج العمل في المشروع ، ومما جعل الامر غير مقبول ان بعض اصحاب هذه الدراسات لم يشتركوا في المشروع ، الا في الاشهر الاخيرة ، وهذا بالطبع افضل من الحالات التي لم يشترك اصحابها في المشروع بالمرة ، وحتى لايفتضح الامر ، لجأ مدير المشروع الى تغيير صياغة النتائج في المشروع عن الرسالة .. المهم ان يصل التقرير في موعده ..

هكذا ركزت جهودي في هذه الايام العصيبة ، وقمت بانجاز التقرير بلغته المطلوبة من اصل وخمس صور ، حتى يصل في موعده المحدد ، وكان في نيتي ان أتأكد من انجاز العمل وسلامته وامانته العلمية خلال العام التالي .. ولا اعلم لماذا حلمت بعلي زكي بكثرة خلال كتابتي للتقرير .. لماذا عاودتني كلماته الغاضبة على فترات متقطعة ..

* * *

اجتاح السأم حياتي فجأة ..

فجرف في طريقه كل شئ ، حتى اصبحت ملولا ، عصبيا .. هل يرجع هذا الى مابذلت من جهد في اعداد التقرير ؟ أم ما تكشف لي من حقائق خلاله ؟ لكني كنت اوقن ان الامر اكبر من ذلك ، فبذل الجهد شئ اعتدته منذ زمن ، ولم تعد الحقائق الجديدة - بحلوها أو مرها - تؤرقني .. كان كل شيء امامي ، في متناول يدي ، سهلا ميسرا ، فبدأت اضجر من اللعبة .. حتى سعاد لم تعد تشبع احتياجاتي ، ومللت شكاواها المتكررة من حياتها واسرتها ..

وفي البيت كانت نفس النغمة اسمعها - دائما - من زوجتي ، عن مطالبها التي لاتنتهي ، وما تحتاجه من اموال ، لما يتطلبه البيت والمظهر الاجتماعي من مصاريف واخيرا مشكلة الاولاد وضرورة مساعدتها في تربيتهم ..

وفي محاضراتي في الجهات المختلفة ، كنت كالببغاء اكرر الكلمات والتعبيرات العلمية ، التي حفظتها عن ظهر قلب ، ولم يعد يطربني ما الاقيه من حفاوة فيها .

تداخلت هذه العوامل معا ، واجتمعت ، فولدت السأم في حياتي ، لكن فجأة - أيضا - هبت رياح التغيير..

* * *

ظهرت نجوى ذات صباح ، دخلت كالطيف ، كانت ترتدي بنطلونا من

الجينز ضيق الخناق على حركتها ، فنفث فيها اغراءاً مثيرا .. تابعتها من طرف خفي ، وهي تناقش صفوان صدقي في شئ لم اتعرفه جيدا .. تعلقت بوجهها الاسمر البشوش ، وغمازتيها الآسرتين وابتسامتها التي لاتفارق فمها ، وشعرها القصير النافر .. وعندما انهت حوارها ، القت الي بتحية عابرة ، وابتسمت ، فأيقنت انها منحتني ردا خاصا على رسالتي ..

اخذت المبادرة هذه المرة ، مستبشرا بالتغيير ، فعرفت انها خريجة جديدة عينتها القوى العاملة بالمركز ، وانها تتبع القسم الذي يرأسه صلاح عبد الرشيد فزرتها مرات ومرات متخيرا الاوقات التي توجد وحدها بالقسم ، حتى توطدت معرفتنا فطلبت ان اقابلها بالخارج ، فلم ترفض او تمتنع ، بل تقبلت الامر كأنه شئ منطقي وهو مافت في عضدي ، كصياد ، كنت اعتبر انني وحدي اضع جميع اللمسات واطورها ..

ثم اكتشفتها بعد ذلك خبيرة محنكة ، كانت سعاد بالنسبة لها مجرد تلميذة مبتدئة .. هكذا انقشعت سحب السأم ، وبدأت الحياة تلين مرة اخرى .

* * *

لم اتأثر كثيرا ـ هذه المرة ـ حين قابلت علي زكي . حاولت ان ابتعد عن طريقه متصنعاً الانشغال وانني لا أراه ، لكنه قطع عليَّ خط الرجعة حين واجهني : حتى انت يا (ص) تتهرب مني ؟

حاولت الابتسام ، متعجلاً الانصراف : أبداً يا اخي ولكنني مشغول جداً ..

حملق في وجهي حزيناً : سأسألك سؤالاً محدداً ، بعد ان قدمت تقرير المشروع عن سنة مضت .. هل تعرف أين تذهب هذه التقارير ؟ ومن يضمن لك انها بين أيد أمينة ، ستحافظ على سريتها ، ولن تصدرها مباشرة لأعدائنا ؟

لم احاول أبداً أن اجادله ، كنت مؤمناً في أعماقي انه احد المشككين ، الحاقدين بل كنت اظنه في بداية لوثة عقلية ، بدأت تظهر عليه أعراضها .

* * *

أيمن توفيق ..

موظف جديد من دفعة القوى العاملة الأخيرة الموزعة بالمركز . قدمه أكرم صالح الى (ص) ، حياه ، جلس الشاب أمامه .. كان مبهوراً بهذا العالم الجديد ، يتطلع الى كل ما هو موجود بالمعمل من أدوات ومعدات وبشر بشغف شديد ..

قال ببساطة : كنت دائماً أحلم بالعمل في معمل ابحاث .

كان أيمن توفيق شاباً طويل القامة ، نحيف الجسد ، يرتدي نظارة طبية ، نظيف الملبس ، حسن الهندام ، وان بدا واحداً من عشرات الكادحين الذين نالوا مكانتهم أساساً بفضل مجانية التعليم ..

أخرج (ص) علبة سجائره المستوردة ، قدم للشاب احداها . اعتذر بأدب بأنه لا يدخن . أشعلها (ص) نفث دخانها ببطء . سرح الى ماضيه ، الى أيام شبابه عند بداية تعيينه بالمركز . كان حلم حياته أيضاً قد تحقق بالتعيين في هذا المركز . ولما رأى رئيسه السابق (العجوز) حبه للعمل أحبه ، وبادله (ص) حباً بحب . كان شغفه بالعلم والبحث لا يشبع ، حتى بدت علاقتهما كاخوة علم . تذكر كلمات العجوز بصوته الحنون « لن تغادر اليوم القسم قبل ان تشاهد هذه التجربة التي اجريها لتوضح لي ماذا تستخلصه منها .. ولو غلطت فيها لن اكلمك » ..

انتبه للشاب حين قال : لا شك انني محظوظ ان عينت في هذا القسم ... فسمعة حضرتك العلمية تمثل نموذجاً يحتذى ..

ابتسم (ص) : « أي سمعة يقصدها هذا الساذج .. البحث العلمي أم المشروع أم الغراميات الانثوية ؟ أم العلاقات العامة ؟ »

بسط يده للشاب : أرجو ان تحقق امنياتك بالقسم .. واذا اعترضتك مشكلة ما ، ارجو ان تحدثني بها فوراً ..

شكر له الشاب اهتمامه .. استعاد (ص) ثانية ايام شبابه ، تذكر رغبته الدؤوب في البحث ، والمودة العلمية مع رئيسه . وباغته سؤال : منذ متى لم يجلس امام المجهر ؟ منذ متى لم يعمل بيديه سوى كتابة التقارير ؟.. انه لم يعد يذكر الهدف الرئيسي من خطة قسمــه ، او اي قسم ، بعد ان اصبح مشرفاً على عدة اقسام ؟

نهض . قال لاكرم : لدي محاضرة الان في وحدة التدريب بالمركز .. اذا جدّ طارئ تجدني هناك ..

* * *

غادرت غرفة المعمل . وفي الطريق لم يكن يشغل ذهني سوى المقارنة بين اثنـين علي زكي واكـرم .. وعـلى قـدر زمـالتهم لي وحبي لهم اضـطررت للمقارنة .. علي زكي متعب ، متحامـل ، حاقـد ، متشكك ، لايعمـل بقدر مايتكلم ، يتصور ان الاعداء وراء كل شئ ، واننا نتحرك كالعرائس بواسطة خيوط الماريونيت ، وان هناك من يلعب بنا لعبة استعمارية دولية ، او «غزو فكري» كما يحلو له ان يسميه .. اما اكرم فانه مسالم ، متفانٍ ، يعمل دائما في صمت ، قليلا ما يتكلم ، لايدخل في مناقشات ، لايصرح عما في داخله ، لايـدخل في اي خصـومة ، دائمـا اجده في طريقي ـ بـطريقة او باخرى ـ يعلن عن استعداده للعمل ، واكتشف دائما انه يعمل مع كثير من الزملاء اصحاب المشاريع ، واضح تماما في تعامله ، أي عمل ينتج نقودا تجده قريبا منه ، فالحركة بركة ، يتنبأ له الجميع بمستقبل وظيفي متقدم . هكذا يكتب له الفوز عند مقارنته بعلي زكي ، رغم ان الاخير اكثر منه علما ومعرفة وثقافة .. لكن ما الفائدة وهو مزعج غير مريح ويتعامل مع الآخرين من منطلق الندّية ، على عكس اكرم الذي يشعرك دائما باستاذيتك عليه ،

رغم اننا جميعا زملاء ..

رنا بناظريه الى جدران الممر ، رأى فيه عددا من الشقوق الطولية المتعرجة . أدهشه وجودها ..

* * *

انهى (ص) محاضرته بوحدة التدريب . اندفع متعجلا العودة للقسم ، ليعد اوراقه للانصراف مبكرا . اصطدم به شخص ما . تواجها . اعتذرا معا . كان علي زكي يتميز من الغيظ والانفعال ..

علق (ص) ببراءة : اراك غاضبا ..

انفجر علي : اوضاع المركز تثير الجنون .. ومدير المركز من يظن نفسه ؟ .. انه ليس إلها يمنح من يشاء ويذلّ من يشاء ..

جذبه (ص) بهدوء الى احد الاركان ، حاول تهدئته ، لكن علي ازداد هياجا : فوجئت اليوم باستبعادي من المشروع الاخر الذي كنت فيه .. لماذا ؟ .. لاأدري .. حاجة تجنن .. كنت اوقع على ثلاثين واقبض عشرين .. ولما سألت قالوا : لابد أن نعمل حسابا للاخرين ، ولايجب كتابة اسماء كثيرة في الاستمارة ، وللمشاركة في صندوق المشروع ، وللسعاة .. واذا لم أقبل هذا الوضع ، كان سيجد غيري يقبل شاكرا ..

فترة صمت قصيرة قطعها علي فجأة : لقد سألت نفسي كثيرا . اذا كان الحق هو ما يبحثون عنه لماذا لاأعطي انا صاحب الحق حقه .. لقد شاهدت الفراش يجري وراء المدير ، فلماذا لايجري ورائي انا ايضا ؟ .. أنا صاحب الفلوس المستقطعه له .. حتى الحفلات التي يقيمها ، هو الحاكم ، الآمر فيها ، والوحيد الذي يتحكم في المدعوين اليها ..

تذكر(ص) واقعة حدثت في بداية المشروع ، حين استبعد المدير ترشيحه لعلي زكي بحجة انه مشاغب يجب منحه بحساب .. فهل كان المدير محقا في موقفه ؟

تهدج صوت علي حين استطرد :تعرف يا أخي ان المشاريع حولتنا الى وحوش صغيرة .. كل مجموعة داخل امبراطورية المشروع الخاصة .. اصبح فلان بتاع فلان .. شلل وعصابات .. المسائل بقت فوضى .. واذا تحدث احد عن الدقة العلمية فهو معوق ، يؤخر العمل في المشروع ..

امسك بيد (ص) مستنجدا : بالذمة هل ترضيك هذه الاوضاع ؟

نظر اليه (ص) مفكرا . رأى فيه ، الثائر على الخطأ دون مهادنة .. استأذنه بحجة ارتباطه بضيوف ينتظرونه بالمعمل ..

ظلت كلماته تطارده ، وهو يبتعد «انه يضطهدني باستمرار .. لكن ماذا افعل ؟ .. ماذا افعل ؟ .. ان الوضع لايحتمل ..»

* * *

جلس (ص) مجاورا لمدير المركز ـ كالعادة ـ في اجتماع احدى اللجان التي يشتركان في اعمالها . كانا اول الحاضرين من الاعضاء ..

مال المدير ناحيته : احوالك تمام ؟

ردد (ص) : الحمد لله .. لاشكو سوى كثرة الانشغال ..

ـ اود ان الفت نظرك الى ان الجهات المختصة قد حولت لنا عددا من المبيدات والاسمدة الكيماوية والتقاوى التي تطلب شركاتها المنتجة الاجنبية الجنسية ان يسمح لها ببيعها في السوق المحلي ..

اشعل سيجارة . جذب نفسا منها . رمق (ص) بنظراته : لقد خصصت قسمك بنوعين منها .. لاجراء التجارب اللازمة لهما . حتى نرفع رأينا بالنتائج والتوصيات وطبعا انت تعلم ان هذه الشركات ذات سمعة عالمية ، وان منتجاتها توزع في كل دول العالم ..

توافد اعضاء اللجنة على المقر تباعا . همس المدير : وسيزورك مندوبو بعض تلك الشركات المنتجة قريبا ..

ابتسم (ص) «ما اشبه الليلة بالبارحة ، وها هي الحلقات تتوالى وتتسع

في سلسلة الاعمال الممتدة ..»

فتح المدير ملف الاجتماع . تفحص (ص) من اسفل نظارته : اظن انك موافق ؟

أومأ (ص) برأسه : لايرفض العمل الامجنون ..

وغض بصره فجأة ، لان سؤالا غريبا داهمه بلا مقدمات « لماذا لااصبح انا مديرا للمركز ؟ ! »

* * *

مع انتهاء يوم العمل ، احس (ص) بالارهاق ، فذهب الى موعد نجوى طمعا في الاستمتاع وتجديد نشاطه ، مارسا الجنس سوية . اشعل سيجارة له واخرى لها . راقبها تدخن بهدوء شديد ..

تفرست ملامحه . ثم قالت : سأتزوج بعد أيام ..

انزعج ، تلعثم : لكن ..

«جئت انشد النسيان والراحة ، فاذا بالمنغصات تلاحقني ..»

قالت بلا مبالاة : لاتشغل بالك ..

انزاح هم طارئ عن صدره : اذن سيؤوب العصفور الى عش الزوجية ..

ضحكت : ويمكنك عندئذ ان تلقبني رسميا «ب يامدام » ..

ضحك معها . تأسره دائما ضحكاتها المنطلقة النابعة من القلب .. في نجوى تكوين مذهل ، تواءمت وتعايشت لديها كل المتناقضات ببساطة عجيبة .. كم احسدها .. لقد وجدت سلمها الداخلي ، فعاشت كما تهوى دون تكدير .

قال أسفا : سأفتقدك ..

قالت بمرح : لنستمتع بهذه الايام المتاحة لنا قبل الزواج .. فاني انوي ان اكون مخلصة لزوجي .. اقترب منها . قبلها بحنان . تساءل بأسى « كيف سيكون طعم الحياة بدونها ؟ ! .. »

* * *

مضت الزوجة لتحضر طعام العشاء ، وهوجالس ينتظر . تسلقت سلوى ساقيه جلست على ركبتيه . راحت تداعبه . جلس طفلاه زكي وسالم على كرسي مجاور ، ومنذ فترة طويلة لم اعرف موقفهما الدراسي .. كل ما اعرفه هدايا رأس السنة وعيد الام واعياد الميلاد للمدرسين والمدرسات ، وكذلك التبرع والمساهمة في الانشاءات .

سأل زكي فجأة : لم خلق الله الشيطان ؟

تطلع (ص) اليه . ارتعب . تمالك نفسه . احتضن سلوى : لكي يغوي الانسان بالانصراف عن الطريق الصحيح ..

قاطعه : فاذا لم يوجد الشيطان ؟

احتار لشقاوته ، وان داخله اعجاب باسئلته .. قال : ربما يمضي الناس جميعا في الطريق الصحيح ..

عاد الولد يسأل : اذن لم خلق الله الشيطان ؟

ضحك لبراعة ابنه : حتى يتيح للانسان ان يختار بعقله الذي وهبه الله له ... ويختار الطريق الصحيح او الخطأ ..

لم يتوقف الطفل : والجنة ..

جاءت الزوجة في تلك اللحظة .هشت بيدها : حان موعد النوم .. وبابا مرهق ..

توالت قبلات الاطفال على وجهه لحظة انصرافهم . لوحت له سلوى بذراعها الصغيرة . ساد الهدوء . عادت الزوجة باطباق الطعام . عافت نفسه الطعام . احس عندئذ ان شيئا غامضا قويا يثقل عليه ، وانسابت موجة حزن رقيقة في كيانه ، فضغط على ناجذيه بعنف ، وجذب شعرة من رأسه بعنف دون أن يدري ..

عاود السؤال عن اولاده ، فخرج من شفتيه عاليا بشكل عصبي - تعجبت زوجته ولكنها اجابت بهدوء : منذ المشروع .. اقصد منذ ان ارسلنا

هدايا عيد الام ورأس السنة ونتائجهم في تحسن مستمر . وطبعا هذا يرفع متوسط اعمال السنة ، وبالتالي يحتاج الامر الى مجهود بسيط في نهاية العام .. وقد اتفقت مع عدد من المدرسات بفصولهما على اعطائهما دروساً خصوصية .. واحدى المدرسات اصبحت على علاقة وطيدة بي ، وترشدني في كل خطوة الى التصرف المناسب لما يجب ان افعل للولدين .. ففي الاسبوع الماضي كاد علي ان يفصل بسبب تجاوزاته الصبيانية مع الاولاد في فناء المدرسة ..

لكن نفس المدرسة اشارت علي بمقابلة سكرتيرة المدرسة ، وتقديم هدية بسيطة لها ، فكانت متجاوبة ومنعت انزال اي عقاب به عدا بعض كلمات التأنيب ..

(١٣)

عانى (ص) من نوم مضطرب هذه الليلة ، قرب الصباح فاجأه حلم مزعج .

«اكتشف نفسه - فجأة - داخل بناية واسعة ، كان الباب الخارجي وراءه الان مغلقا ، والارض من حوله مغطاة بالموكيت ، وبعض قطع السجاد الفاخر ، بينما سيطر الهدوء على المكان ..

كيف دخل ؟ مع من جاء ؟ ماذا جاء يفعل ؟ لم يجد لاسئلته جوابا ..

تطلع امامه . ثمة سلم ما . صعده متعجلا .. كان يفضي الى فناء متسع وفي الجوار كان بائع (الكانتين) يقف ساكنا . انطلق اليه مسرعا . توقف امامه . حاول أن يلتقط انفاسه اللاهثة ، لكن الرجل سأله بغتة عما يبحث ، وهل معه نظامه ؟ ، ولايدري لم فهمها فورا بمعنى علاجه ..

أجاب فزعا (ربما لانه اشتم رائحة خطر ما) : لا .. لا .. انني ابحث عن دورة المياه .. نظر اليه الرجل دهشا . بدا أنه لايصدق البتة ..

وجد (ص) بابا جانبيا . اخترقه مسرعا . سقط في بهو واسع . وجد

الكثير من الرجال والنساء يتحركون داخله في اتجاهات شتى ، حاول ان يتعرف بينهم وجه فتاته ، لم يستطع .. استوقف عجوزا . سأله : من فضلك .. أود أن ..

نظر اليه العجوز متعجبا . غادره على عجل ..

كان انفعاله يتزايد .. لو اجد نجوى الان .. لو .. التفت الى فتاة تعبر بجواره ، سألها : من فضلك .. أريد أن ..

لم تعره الفتاة التفاتا ، مضت في سبيلها .. تساءل مرعوبا : هل انا في مستشفى للمجانين ؟

اخيرا وجد حجرة نجوى . دخل .. كانت واسعة جدا ، نوافذها مشرعة . امكنه أن يشاهد المارة بالخارج ، كما كان يمكنهم ان يروه لوارادوا ..

حياها . جلس بجوارها . قالت له : يجب ان تذهب وحدك .. ثم اتبعك .. أومأ برأسه موافقا ، شعر بسعادتها ، لانه سيتيح لها فرصة الاستعداد بملابس مناسبة . نهض . اغلق النوافذ . سلم عليها وهي جالسة . احتضنت يده يدها . اخبرها ان يدها صغيرة ورقيقة ..

ابتسمت له بانشراح ، خرج مترعا بالفرح ..

انتظر (ص) بالخارج لفترة قصيرة . جاءت نجوى . تشابكت يداهما . سارا معا . لم يتحدثا . ثمة تفاهم خفي يسري بينهما . واجههما ممرض ضخم الجثة . نظر الى (ص) قال قبل ان يسأله ايهما وكأنه كان يتوقع استفساراً مامنه : اريد أولا مبلغا من المال لاخبركما .

سأله (ص) عن المبلغ ..

أجاب الرجل : أي مبلغ .. المهم ان تدفعه أنت ..

بحث (ص) في جيبه الداخلي ، وجد بعض العملات الفضية . اخرجها كلها ، وقدمها له ..

اخذ المرض النقود . احصاها . وضعها في جيب سرواله ثم جذب (ص) بعنف فجأة : يجب ان تتحرك معي الان ..

لكن (ص) استطاع ان يفلت منه بمهارة وجرى مبتعدا ونجوى تلاحقه .. ومن بعيد رأى ان المرض قد توقف ، وراح يتابعهما بنظرة ساخرة ..

وجدا امامهما ممرا جانبيا . اندفعا اليه .. كان المكان مزدحما على اشده باناس من مختلف الاعمار ، مندمجين في احاديث مبهمة . تسللا وسطهم . شاهدت نجوى ضابط شرطة بحلته البيضاء . جذبت (ص) للناحية الاخرى .فاجأهما ضابط آخر يتفقد المكان «هل كان يبحث عنهما ؟»

جذبها من يدها : انهم هنا في كل مكان ..

نقبت عيناه عن مخرج ، وفتاته الى جواره .. كان يسائل نفسه بالحاح لماذا دخلت هنا ؟ عما جئت ابحث ؟

دون ان يحظى باجابة شافية ..

* * *

صحا (ص) من النوم متوترا ، منقبض الصدر .. كانت مشاهد الحلم مازالت تمسك بخناقه . رأى زوجته تستعد للذهاب الى عملها . اضطجع على الفراش . تبادلا تحية الصباح .

قالت وهي مندمجة في استكمال زينتها : الليلة عيد ميلاد ابن صديقتي دولة .. اياك ان تنسى .. هل اشتري انا الهدية ، ام تشتريها انت ؟

ـ افضل ان تشتريها انت ..

تأمل زوجته .. كان جسدها قد ازداد سمنة وتضخما خلال الاشهر الاخيرة اهذه سناء التي عشت معها كل هذه السنوات الطويلة ؟ ، اكاد احسها غريبة عني

غادر الفراش متمهلا . نظر الى حوائط حجرة النوم المغطاة بورق حائط فاخر من اغلى الاصناف ، كاد ينكر انه شارك في شرائه ، حتى الستائر

الجديدة التي تطيرها نسمات الصباح الندية ، اندهش لوجودها ..

كان يشعر بخوف غامض مجهول يتفشى داخله ، كأنه متهم مطارد .. أكان ذلك بتأثير حلم الصباح ، حتى اصبح يرى الواقع بعين الحلم ، فيضفي عليه ابعادا نفسية دخيلة عليه ؟ .. ام انه مازال اسير حلمه الغريب ، ولم يفق من سطوته بعد ؟

* * *

كانت اشارة المرور حمراء ..

أوقف (ص) سيارته . توقفت بجواره سيارتان . كانت الشمس الساطعة تنعكس على اسفلت الشارع وتتألق على فروع الاشجار العارية ، التي تساقطت اوراقها الصفراء وطيرتها الرياح على الارض.طرق سمعه هدير صوت قائد السيارة المجاورة . التفت اليه كان عجوزا ، يتحدث كمن يشكو ، يشوح بيديه منفعلا .. اكتشف (ص) انه وحيد ..

أضاء النور الاخضر . انطلق : (ص) بسيارته . تحركت سيارة العجوز المجاورة وما زال سادرا في غضبه المجهول ..

لم يدرِ لماذا! ارتبطت في ذهنه الوان اشارة المرور مع صور ثلاثة اشخاص : صورة المدير امام اللون الاحمر ، صورته امام اللون الاصفر ، صورة ايمن توفيق ـ احدث الزملاء بالقسم ـ مع اللون الاخضر .

تشرب وجهه بتعبير مائع لاهو بالابتسام ، ولا هو بالبكاء .. وتبادلت الصور الثلاث وصورة العجوز الغاضب الظهور امام ناظريه ، في توال متكرر .

* * *

وصل (ص) الى المعمل . اعد له عم عوضين الشاي قدمه له . سأله : مبسوط ياعم عوضين ؟

اجاب الفراش العجوز بنبراته العميقة : نحمده يابيه .. الحال عال ..

والبركة من الله ..

لايدري (ص) لم تذكر عندئذ قائد السيارة العجوز ..

- والعمل .. اقصد الشغل .. هل يتعبك .. يعني مع سنك الكبير ؟

- عمل ؟ .. اين العمل يابيه ؟ .. الوحيد الذي يحاول امامك هناك ... لانه جديد ..

كان يشير الى ايمن توفيق ، الذي كان منهمكا في فحص عدد من الشرائح تحت المجهر ، وامامه مرجع علمي مفتوح ، يحاول من خلاله ان يقارن بين مايرى وما يقرأ .. استعاد (ص) عندئذ ايام شبابه ؟ .. انه ليس عجوزا ، ولعل صورة ايمن هي التي وضعته موضع المقارنة ، او لعل حياته الجديدة اللاهثة هي التي منحته هذا الاحساس ، ام لعله الزمن يمضي دون ان نشعر ، نحسه فقط لحظة تعاسه أو شقاء ..

«اين العمل يابيه ؟ ..»

كلمات ثلاث بسيطة قالها عم عوضين ، ولكنها فتحت ملفا مطويا .. كيف لم يشعر عم عوضين بكل هذا الكم من الانشغال ؟ .. لجان عديدة ، مشاريع مختلفة محلية واجنبية ، بعضها يتبع هيئات واخرى تتبع جامعات ، ومحاضرات مختلفة ، وانتدابات لتقييم معدات او وضع ميزانيات ، لجان فحص كيماويات ، اسمدة ، ومبيدات ، اشراف على دراسات عليا واشتراك في لجان مناقشة .. اكل هذا لايشعره بالعمل ؟ .. انه مازال رهينا للنظام القديم ..«الملاحظة» .. هي سلاح العالم الاول منذ زمن طويل لاكتشاف المشكلة ، وتوجيه النظر اليها .. وكيف تتحقق الملاحظة الان ، ولا يوجد وقت للمرور على المزارع .. انني اقضي معظم اليوم في اجتماعات مغلقة او مع السيد المدير او متنقلا بسيارة المشروع لقضاء مصالح عديدة ، والمرات القليلة التي اشاهد فيها الحقل هي عند زيارة احد المسؤولين .. ألا يكفي ان ندرس ملاحظات الباحثين الجدد ، ولو انهم

يعتمدون الآن على الملاحظين والعمال ..

ان عم عوضين يريد ان يرانا جميعا كالايام الماضية نخرج الى حقل التجارب ، ونعد الاصص ، ونعقمها ، ونعقم التربة ، ونزرع ونختبر الميكروبات ونتابعها كل صباح ومساء ، وندرس وسائل المكافحة بين مقاومة ووقاية ..

اه ياعم عوضين .. تبا لك ولافكارك العتيقة ..

* * *

اعتذر (ص) عن محاضرات اليوم ، قرر المكوث في المعمل ..

جاء صفوان صدقي في الحادية عشرة حضر حسن لمعي بعده بساعة . لم يجلس أي منهما في المعمل سوى فترة قصيرة . لم يحضر اكرم صالح . كان (ص) يتمنى أن يراه أن يتحدث معه ، ان يفضفض اليه بما تجيش به نفسه ، فراح يشغل نفسه بترتيب ادراج مكتبه .

فجأة اقتحمت عليه ثريا عزلته كانت فتاة بيضاء البشرة ، قصيرة القامة ، يشع وجهها حيوية . سلمته خطابا موجها اليه من مدير المركز ، دعاها للجلوس . كانت فحوى الكتاب انها باحثة ، نقلت حديثا من مركز آخر ، وانها ابتداء من اليوم ستضاف الى قوة قسمه ، وان عليه ان يسلمها العمل اعتبارا من تاريخ وصولها للقسم ..

استبشر (ص) خيرا ، فها هي الوجوه الجميلة تجاوره في مقر عمله ، بضربة حظ موفقة ، لتخفف من كربته ..

سألها : لعلي لااكون متطفلا .. ولكن ما هو سبب نقلك ؟

بشّت له : ليس في الامر اسرارا .. طلبت نقلي الى هنا ، لقرب المكان من محل سكني ..

فترة صمت قصيرة . قطعتها ثريا بقولها : اعتقد ان لي الحق ان ادعي انني اعرفك منذ زمن .. فقد حضرت لك عددا من المحاضرات . بالاضافة

الى سمعة سيادتك .

هز رأسه باسما : بصدق اسعدتني كلماتك ..

ـ لكنك تبدو اكبر مما قدرت ..

خجلت ، احست انها تمادت في كلماتها باكثر مما ينبغي ، فتفشّت في وجهها حمرة خفيفة ، تزايدت وتكثفت في فترة قصيرة . اما هو فقد انعشته بساطة وتلقائية ردود فعلها ، فبدا له بحس الصياد الخفي ان هناك مهمة صعبة تنتظره لترويضها ..

ابتسم : انني في بداية العقد الخامس من عمري ..

أصرت على الصمت : عموما سنجري لك اجراءات استلام العمل بعد قليل .. وارجو ان يعجبك العمل معنا ..

رفعت وجهها . تطلعت اليه ، كمن تعتذر عما بدر منها : سيعجبني انشاء الله . امسكت عيناه بعينيها العسليتين .. كم اعجبه صفاء عينيها ..

* * *

نادى (ص) ايمن توفيق . طلب منه الجلوس قريبا من ثريا . بدأ يشرح لهما عمل الاقسام المختلفة بالمركز ، واوضح اهمية تنسيق العمل بينهما جميعا ، ليعمل بالمركز كوحدة علمية واحدة ، ثم تطرق الى تفصيل العمل بالقسم ، وافاض فيما يتعلق بضرورة العمل في مجالات التنمية ، ومايعود بالنفع على المجتمع ، ومن ضروب اختيار ابحاث تصلح للتطبيق وتساهم في حل مشكلات المجتمع .. كما تحدث عن الامانة العلمية والصدق العلمي ، وان يتحلى الانسان بالصبر ، ويتزود بقوة الاحتمال ، وان يكون له رأي وشخصية وبعد نظر في قياس الامور العلمية ، كما لم ينسَ ان يشير الى أن الذي يتخذ من العلم وظيفة عليه ان يعرف ان المال بعيد عن يديه ، فالعلم والمال لايجتمعان في يد واحدة .

توقف حين بلغ به الحديث هذه الجملة التلقائية ، فكر لوهلة هل كان يقولها لنفسه ؟ ، وحين شعر انهما ينتظران بقية حديثه ارتبك ، وقد نسى

تماما بداية الحديث لكنه استدرك قائلا : اقصد لاتجعلا المال هو الهدف ، وانما سيأتي في الوقت المناسب .

وختم حديثه بأنه ستتعدد اللقاءات ليشرح لهما ، ويشترك معهما في البحث ..

كانت كلماته تنطلق بحرارة ، تندفق من اعماقه ، كمن يحكي تاريخا شاده بعرقه وكفاحه .. ايام ضغط العمل في الزمن القديم ، كان العمل يبدأ في الصباح الباكر لينتهي ليلا ، ليعاوده في صباح اليوم التالي ، في دورات مستمرة لاتعرف الكلل . كانت حياته هنا ، عـالمه ، سعـادته ، لم يشعـر خلالها ابدا بالوحدة او الضياع . أما الان فكل شئ ميسر له ، لكنه يشعر أن فراغا رهيبا يحتويه ، ينبع من داخله ، يتفشى فيما حوله .. تمنى لحظتها لو ينطلق ثانية الى الحقول ، الى الفضاء ، حيث تتسع الارض ، وتمتد بلا نهاية بعمق الكون ، وحيث السكينة والهدوء ، وملجأ شبـابه الآمن من قسـوة الايام ، عندئذ قد يتنفس بعمق ، ويحس بالراحة ..

قطع عليه تدفق افكاره ، دخول شاب وسيم الطلعة ، انيق الملبس ، تقدم منه مستفسرا : هل اتشرف بالحديث الى الاستاذ (ص) ؟

أومأ برأسه ، ولايدري لم تذكر مندوب المؤسسة في أول لقاء بينهما ..

قال الشاب : انني مندوب شركة (اكس) للمبيدات ..

مضى ايمن ومعه ثريا الى الجزء الذي كانا يعملان عنده . نظر المندوب الى (ص) : لقد ارسلني السيد المدير الى سيادتك ..

أومأ (ص) : نعم . أعرف ..

فتح الشاب حقيبة اوراقه السامسونايت ، اخرج بعض النشرات منها : هاهي بعض النشرات الدعائية للمبيدات التي تنتجها الشركة ..

تناول النشرات . بدأ يتصفحها ، مصغيا للمندوب باهتمام : وبصفتي مندوبا لفرع الشركة في بلدنا الحبيب .. سأكون تحت تصرف سيادتك ،

ورهن اشارة العاملين معكم .. في متابعة تجاربكم التي ستجرونها على **اسمدتنا** ،**التي تقدمنابطلبات لاجازتها** ..

قاطعه (ص) رافعاً صوته : حاجة مثلجة ياعم عوضين للاستاذ ..

هاهي النسمات العليلة تهب برقة ، لتخفف من قيظ الواقع .. شركات المبيدات هذه قصة اخرى يجتاز عتباتها ـ للمرة الاولى ـ مشاركا ، كان من قبل حريصا على البعد عنها ، خاصة انه في فترة عمله الاولى بالمركز سمع عنها الكثير ، فالاستاذ (م) يسافر كل عام هو وعائلته الى احدى الدول الاوربية على حساب شركة مبيدات ، وتصله هدايا عينية سنوية تدخل تحت اسم الدعاية والاعلان عن تلك الشركات بدءاً من اطقم المكاتب وانتهاءاً الى اشياء لاتخطر على البال .. حمد الله ـ في ذلك الوقت ـ انه لم يعمل في هذا المجال ، اما الان فالوضع مختلف بعد ان اصبح مسؤولا رسميا عن هذا القسم بعد اعارة مديره المسؤول الى دولة عربية .. كثيرا ما كان في الماضي يشك في نتائج اختبار المبيدات ، وسلامة تعميم وتنفيذ تجاربها ، لان رأيه الخاص كان خطورة تعميم استخدام المبيدات والمواد الكيماوية للرش على النباتات ، حيث قد تنصرف آثارها الجانبية الى جوف آكلي هذه النباتات من حيوان او انسان ، فمنها ما هو سام ، ومنها ما يتراكم فتتزايد سميته بما يؤثر على وظائف الجسم ..

أما الآن فعليه ان يمد يده مرحبا بهذه الشركات ومندوبيها ..

* * *

زاره علي زكي بعد الظهر . بدأ منلوجه عن اضطهاده المستمر من مدير المركز وان هذا جزء من واقع الفساد الذي يعيشه الجميع ، ثم استشهد بحواره مع خبير النبات الاجنبي الذي يرأس مركز ابحاث مشابه ـ بعد محاضرة له عن العفن الابيض في البصل والقضاء عليه بواسطة الفطريات المرباة ..

سأله علي : هل تنفذون هذا المشروع في بلدكم للمكافحة على المستوى العام ، وفي مساحات كبيرة بعد ان استمرت تجاربكم عليه عدة سنوات ؟

ـ حتى اليوم لا ..

ـ ما رأيك في التجربة الهولندية (حيث حاولت هولندا تطبيق هذا المشروع هناك) ؟

ـ ليس من المفروض ان ماينجح في هولندا يجب ان ينجح هنا او العكس ... ولكن يجب ان نتأكد هل يمكن تطبيقه علميا أم لا ..

ـ ما رأيك في تطبيق المشروع في بلادنا ؟

ـ نحن لانستطيع ان نفعل مثلكم .. حيث انكم تربون الفطريات على الشعير او غيره .. ولا تحسبون العامل الاقتصادي في تكلفة المقاومة .. ولو فعلنا هذا سنحاسب حسابا عسيرا لان التكلفة بند هام ..

استطرد علي ثائرا : هذا رأي خبير اجنبي .. ولكن صدقني .. ان هذا ما يفعله معنا المسؤولون بالمؤسسة عن المشاريع .. انهم يغدقون علينا نحن البشر الباحثون بصورة واعية .. انهم لايهتمون بالتكلفة مقابل استئصالنا .. انهم يصرفون غاليا حتى يخلوا الموقع لهم ، فيسهل استغلاله .. المصيبة اننا نأخذ المسألة مأخذاً شخصيا لحاجتنا للمال ..

اكمل علي بانفعال : لقد اكتشف احد زعماء جنوب شرق آسيا تأثير قبول هذه المشروعات حين قال: كنا نصيب انفسنا بفيروس سمم دم الامة ، وكان بمثابة مرض غادر من النوع الذي يصيب بالشلل ، وحين وضحت معالم المرض ، كان الوقت متأخرا جدا لعمل شئ رادع .

استمر الحديث من طرف واحد ، طرف علي زكي .. اما (ص) فانه كان يتظاهر بالانشغال ، ويتأفف بين الحين والحين رغبة منه في فضّ الحديث ، لكنه في ذات الوقت كان يصغي باهتمام ..

ـ هل تتصور ان مشكلة علمية بحتة يتنازعها عالمان انت تعرفهما جيدا ،

الاول يقول ان سببها آفة موجودة ، وتهدد الكيان الزراعي في الكمثرى ، والاخر يعارضه ويقول انها غير موجودة . ثم يتحمس لكل منها جماعة ، وتنقسم الجماعتان الى فرق واحزاب .. ثم يتقدم ثالث بمشروع لمكافحة هذه الافة ، التي لم يثبت وجودها من عدمه بشكل قاطع ، ويبدأون برنامجا للوقاية والمكافحة يكلف اموالا طائلة .. هل تعرف أن احد المشتغلين بهذا المشروع اوصى باستخدام مضادات حيوية تحقن في التربة اسفل الاشجار ، نسى البعض فتح العبوات التي تحتويها .. انها نكتة كما ترى .. ولكن هل تعرف انهم حصلوا من هذه البرامج على نتائج تم تقديمها في تقاريرهم .. نكتة ؟ .. اليس كذلك ؟ !

وهل تعرف ان احد المشاريع اوصى باستخدام صنف من الارز حساسيته عالية جدا للاصابة في ظروفنا البيئية ، عندما جربه المزارعون كان الفشل ، وترتب على ذلك تصريح المسؤولين على صفحات الجرائد بأن الحكومة ستقوم بتعويض المزارعين عن خسائرهم وهل قرأت تقرير المركز في هذا الشأن نكته ايضا .. اليس كذلك ؟

وهل عرفت ان احد المشاريع استقدم تقاوى بطاطس بالاف الجنيهات ومنذ عدة اشهر لايعرفون اسم المسؤول عن فحص هذه التقاوى التي تركت مهملة حتى تعفنت ،وتطالب الجهة المستوردة بتعويضات وارضية تصل الى الاف الجنيهات ؟ . نكتة ايضا ؟ !

وهل سمعت ماحدث لاستاذ من اساتذتنا الافاضل وهو مدير مشروع .. غضب عليه المدير ، فطبق عليه لائحة المركز بأن يسلم المشروع لبلوغه سن المعاش واخطره بذلك اثناء سفره للخارج ، واعطاه مهلة تنتهي قبل وصوله الى ارض الوطن وحين عاد الاستاذ ، لم يجد سيارة المشروع أو الميزانية ولم يعد العاملون فيه يتبعونه ، فتحداهم بعدم تقديم تقرير المشروع عن العام الماضي ، حتى يوقف صرف المكافآت فقام المدير الجديد بكتابة تقرير كامل

مفصـل ـ علمي بحت ـ واستمر المشـروع ، وصرفت المكـافآت .. نكتـة ايضا .. اليس كذلك ؟

صمت علي زكي قليلا ، تنهد : عموما تظهر الايام صدق ظنوني .. يكفي أن اسمع الان ان كل انواع المشاريع سوف تجمد .. وسوف يكون هناك صندوق يجمع كل مصادر التمـويل ، وتـوضع خـطة قوميـة ، وبرنـامج وسيحصل العاملون على مكافآتهم من هذه الصناديق بطريقة نظيفة ، ليس فيها تبعية لاشخاص ، اوحسب تقييمهم وبذلك ينتهي عهد الشلل في المجال العلمي ، ويتوقف الانهيار ...

استمر علي زكي يتحدث ، كأنه في غيبوبة ، ولم يشعر بخروج (ص) منذ فترة ثم اكتشف انه كان يتحدث وحده ، وان عم عوضين مازال كامنا في ركنه ، وأن ايمن يراقبه من طرف خفي ، فتوجه اليه وهو مرتبك تماماً ، وقال معتذرا : آسف .. هل ازعجتك بحديثي ..

قال ايمن مجاملا : ابدا .. ابدا ..

ما أن انصرف علي زكي من المعمل ، حتى دخل (ص) . توجه الى ايمن قائلا : لاتعره انتباها .. انه يتخيل امورا كثيرة .. انه زميلي .. ويعتبر نفسه الان زعيما .. لكنه حاقد ، مرتاب ، متشكك في كل شئ .. لاينـظر الا الى الجانب المظلم ، ويبحث عن العيوب فقط .. يكفي ان اقول لك انه اعتقل عدة مرات .. لاندري السبب .. فهو دائم الشكوى والشعور بالاضطهاد تخيل انه يتهم معظم العاملين بالمركز بعدم الامانة العلمية ، وبـوجود عـلاقات خاصة تدفعهم للمجاملة على حساب العمل .. لاتعره انتبـاها ، ولاتفتـح اذنيك له ..

* * *

أما علي زكي فقد سار متباطئ الخطى ، مذهولا ، يحدث نفسه «.. هل ما أراه حقيقة أم محض خيال ؟ وهل ما اراه من انهيار في البحث العلمي

يرجع الى المشاريع والشلل ، ام انني حاقد كما يقولون ؟ .. وهل حقيقة اتحدث باسم المصلحة العامة ، ام بسبب عدم دخولي في مجالاتهم ؟ .. ام ان الحقيقة انني مزعج بطبعي ؟ »..

لم يحاول احد ممن مربهم ان يجامله ، ولو حتى بمجرد السؤال عن حاله فقد اشيع عنه ، من مصادر غير محددة انه على ما يبدو يمر بظروف عائلية صعبة ، وانه في حالة انهيار عصبي تهيئ له انه الوحيد الذي يعمل بجد واخلاص من اجل بلده ، وان الاخرين يتظاهرون بالعمل ، ويتحدثون باسم المصلحة ، ولكنهم يخربون .. كما اعلن عدد من الزملاء ، انهم احيطوا علما بصورة مؤكدة ، من مصادرهم الخاصة انه تقدم في الفترة الاخيرة بعدد من الشكاوى الكيدية غير المذيلة باسمه ، يتهم فيها البعض بسوء الخلق ، والبعض بالرشوة ، والبعض باستغلال المنصب ، ويتهم المشاريع بأنها السبب في ضعف المستوى العلمي وفساد جوه ..

* * *

مضى (ص) مسرعا بعد انصرافه من العمل الى العش المشترك . فتحت له نجوى . اغلق الباب وراءه . قبلها بلهفة ، وهو يقول : كنت ذكية عندما فهمت سبب زيارتي لصلاح عبد الرشيد في القسم ..

- كنت تحدثه بلسانك ، لكن عيناك كانت تطلباني .. فلبيت النداء .

- كلما اقترب موعد فراقك .. تجتاحني الرغبة الى لقائك ..

ردت بخبث : هل تغريني برفض الزواج ؟

احتواها بين ساعديه : احدثك عن حنيني اليك ، فتحدثيني عن الزواج ..

ضحكت . استكان جسدها - لينا - بين يديه . كان لدى نجوى القدرة على منحه الاحساس بالتفوق والرجولة ، عندما تحتمي في كنفه ، كأنثى عديمة الحيلة او كقطة صغيرة ، وديعة ، مستأنسة .

تملصت منه : سأعد لنا اولا طعاما سريعا ..

استدارت وهي تتجه ناحية المطبخ : صلاح عبد الرشيد متوتر هذه الايام بشك غريب ..

ـ لعله الكبر اومتاعب عائلية ، وليست مشكلة مادية بأي حال .

ـ أوربما امر آخر لاندريه ..

كان يتابع نجوى وهي تمشي متمايلة في قميص نومها الشفاف ، عندئذ راودته صورة ثريا لوهلة ، فبدأ يخلع ملابسه متعجلا ، محاولا ان ينسى التفكير فيما كان أوما سيكون ..

* * *

(١٤)

واخيرا حان موعد المؤتمر العام لانجازات المشروع ، وهو عادة ينعقد بعد انتهاء فترة زمنية معينة من البروتوكول العام ، وهذا مايميز العمل في المشروع ، حيث يسير كل شئ وفقا للخطة السابق اعدادها ، كل شئ كما هو وارد بها تماما ، وها قد جاء وقت عرض النتائج على الرأى العام .

تسلمنا نحن مديرو المشروعات تقارير كاملة ، مطبوعة ومجلدة بصورة فاخرة ، مبكرا بوقت كاف قبل يوم المؤتمر . كما تسلمنا «كتيب المؤتمر العام» ، الذي تم تصديره بكلمة للسيد الوزير واخرى لرئيس المؤسسة ، ثم بيان تاريخ حفل الافتتاح ومكان انعقاده ومواعيد واماكن جلسات العمل واسماء السادة المتحدثين فيها واسماء مشروعاتهم وكذا اسماء مقرري هذه الجلسات ، ثم مواعيد حفلات الاستقبال بعدد من الفنادق الممتازة ، وفي النهاية صفحتان تتضمنان اهم اسماء السادة المشاركين في المؤتمر ، ظهر إسمي بينها في المقدمة ..

* * *

كان حفل الافتتاح حافلا حضره عدد من الوزراء ، والعديد من كبار

شخصيات الدولة المهتمة بالعمل الزراعي من مسـؤولين بمراكـز البحث العلمي والجامعات والوزارة ، وقيـادات شركـات الانفتاح التي تعمـل في المجال ومسؤولي المؤسسة .. وصور الحفل تلفزيونيا ، واذيعت فقرات منه في نشرات الاخبار ..

وكان انبهارنا بحفل الافتتاح لاحدود له ، وكان اتفاقنا على ذلك تلقائيا ، بل ان الكلمات الوحيدة التي ترددت عندئذ كانت ..

ـ تنظيم رائع .. نجاح كامل للمؤسسة ..

ـ لقد حسبوا كل شئ بدقة ..

ـ لهم حق يتقدمون العالم ..

ـ اننا متخلفون حقا ..

وتخيلت ما سيقوله علي زكي لو كان معنا «اننا في مصر ايها الزملاء .. وكل هذه العظمة ، وكل ماترونه من تنظيم يسير في تناسق هارموني انما قام به المصريون ، ولكنهم فقط يعملون في المؤسسة !

وتوالت كلمات المسؤولين بالدولة ، ثم بدأت جلسات العمل التي استمرت ثلاثة ايام حافلة ، عقد خلالها العديد من حفلات الاستـقبـال والغذاء في عدد من الفنادق المشهورة ..

كان المتابع المنصت لحفل الافتتاح وجلسات عمل المؤتمر يستطيع ان يتأكد بسهولة انه خلال السنوات الاخيرة قد تم حصار كل مشكلات الزراعة في الوطن ، بل تم التغلب عليها تماما .. هكذا تحدث المسؤلون ، وهكذا خرجت علينا التقارير التي ساهم كل منا ـ بالطبع ـ في صياغة وكتابة الجزء الوردي الذي يخص مشروعه ..

*　*　*

كان موعد (ص) ان يكون اول المتحدثين في اليوم الثاني لجلسات عمل المؤتمر قدمه مقرر الجلسة بكلمة اشاد فيها بتاريخه العلمي الناصع ، وكثرة

بحوثه المنشورة .. وامسك هو الميكرفون ، تطلع الى الحاضرين في عمق القاعة .. كانوا قلة قليلة ، لم يكن متهيبا الموقف ، فهي ليست المرة الاولى التي يواجه فيها عددا كبيرا او قليلا من الحاضرين ، لكن ثمة شئ في داخله جعله يتردد .. اهي كلمات المقرر التي الفها لطول تكرارها على مسامعه ، ام ان هناك شيئا آخر ، شئ كامن فيما يراه ويسمعه ؟ ..

استطاع اخيرا ان يحسم تردده ، واندفع كعادته التي اكتسبها من طول خبرته بالمحاضرات ـ يتكلم ـ فافاض ، الى ان وصل الى نهاية كلمته والتي يوجز فيها نتائج البحث .. تردد ثانية ، شعر ان كل كلمة تخرج من فمه تؤذيه ، لكنه اندفع في كلمته منقادا ، لايستطيع ان يتراجع حتى لواراد .. لقد تابعنا الظاهرة ـ كما رأيتم ـ خلال المواسم الاربعة السابقة بعد ان قمنا بتقدير الخسائر الناتجه عنها ، ووضعناها في تجربة تخضع للنظم العلمية ، والتحليل الاحصا[illegible] كررنا التجارب في اكثر من منطقة ، واتضح (كما مبين بالجدول رقم ١٨) ان الميكروبات المعزولة امكن مقاومتها باستخدام الرش بالجرعات المختلفة المدونة ، كما ان بعض الاصناف التي امكن ادخالها ذات مقاومة عالية لهذه الظاهرة ...

لم ينَس ان يبين عدد العاملين في مشروعه من باحثين ومساعدين وعمال كما تضمن تقريره ارقاما عن عدد الفلاحين الذين قاموا بالحرث والغرس والري ، كما اثنى في نهاية حديثه على كبار المعاونين بدءاً با لسيد الوزير الذي قام متفهما بتذليل كل العقبات التي اعترضت المشروع ، وانتهاء بمدير المشروع ، مرورا بالسادة خبراء المؤسسة الذين ترددوا عليه خلال سنوات المشروع على اختلاف طبيعة عملهم ودرجاتهم العلمية ..

جاءت العبارة الاخيرة في تقرير (ص) مطابقة تماما لما املاه عليه مدير المركز وطالب فيها بمد فترة المشروع ثلاث سنوات اخرى ، رغم ادراكه تماما للتناقض بين ماقام بعرضه في تقريره من القضاء على المشكلة ،

والانتهاء منها ، وبين طلبه لاستمرار المشروع الاانه قال كلمـاته بهـدوء وثقة ، بنفس الاداء الذي قام به مدير كل مشروع سبقه في العرض في اليوم السابق ، باستثناء عدد قليل من مديري المشاريع الذين نجحوا في تقديم مشروعات بديلة بعناوين اخرى ..

* * *

وماذا كانت محصلة كل هذا المؤتمر ..

اشاعة جو من التفاؤل من خلال احاديث صحفية ، اذاعية ، اومقابلات تلفزيونية .. الجميع يعلن فيهاأن امور الزراعة على خير مايرام ، وان كل شئ تمام ..

هذا بالاضافة الى ابتسامات متبادلة بين مديري المشاريع كلمـا التقى بعضهم ببعض ، دون خوض في تفاصيل الابحاث ، وابداء الرغبة الاكيدة في زيادة التعاون بينهم ، والاستفادة من نتائـج المشاريـع وتبادل الخبـرات بينهم ، ولا مانع من الاتفاق المبدئي على لقاءات علمية متخصصة ..

كما تمخض هذا المؤتمر عن تغيير في تشكيلات اللجان العليا بالوزارة ، وعضوية اللجان الفرعية ..

أما(ص) فقد امتدت قامته وانتصبت اكثر ، وهو يسير في طرقات المركز ، ما ابتدأ احدا بالسلام سوى اصحاب المناصب العليا ، بينما يتكاسل في مد يده الى الزملاء حين يحييه احدهم او يسلم عليه .. فالكل دائم الحديث عن بلاغته ، وعن نتائج مشروعه العظيمة ، ويرشحه البعض لمنصب اعلى ..

ولم يدر احد ما الذي يدور في رأسه ، وهو يمشي ساهما ، قليل الكلام .. كانت هناك اسئلة كثيرة تراوده ، وتراوغه ،« هل كنت الوحيد الذي قـدم تقريرا ملفقا الى المؤتمر ؟ أم ان هناك ايضـا من طوى سره في صـدره ، واطاعه طاعة عمياء فيما رأى ان يضمنه تقريره ، رغم مافي رأيه من تناقض واغراض ؟ .. لماذا لم يناقشه ، وتقبل كلماته كتابع ..»

كم يتمنى ان تقف كل المشاريع ..

كم يتمنى ان يسوى معاشه ويرتاح في بيته ، ويبتعد عن هذه المسؤولية بما تجلبه من توتر وقلق ..

لكنه كان في كل مرة كلما فاض به الكيل ، يواسي نفسه بقوله «لست وحدك الذي تفعل ذلك .. انهم جميعا يفعلون اضعاف ذلك .. انهم جميعا يفعلون ذلك ؟»

* * *

(١٥)

حدث امر غريب غير مألوف ..

وصلت (ص) مكاتبة رسمية من مدير المركز ، يطلب منه فيها ان يحضر الى مكتب سيادته في موعد مبكر من اليوم التالي ، وجه الغرابة في الامر انه اعتاد منذ فترة طويلة ان يجلس طوال يومه الى جوار المدير (أو على الاقل في الساعات الخالية من اي ارتباطات اخرى) !.. كان هذا شأن (ص) ، وبعض مديري المشاريع ، وايضا بعض الموظفين ممن يقدمون خدماتهم طواعية .. يكفي ان اكثرهم قد لايجلس في قسمه اكثر من نصف ساعة يوميا ..

أراد ان يعرف سبب المقابلة ، دارت اتصالات تليفونية مع باقي الزملاء ، وجدهم جميعا يعانون ذات القلق ، لقد وصلهم نفس الاستدعاء ، ولايعرف احدهم السبب مع انهم كانوا مع المدير بالامس ..

علل له احد الزملاء السبب بقوله «ربما سيضع نظاما جديدا للعمل بسبب الاشاعات المنتشرة حول تجميد المشاريع ، او التغيير المتوقع في قيادات المركز ..»

ضمن اخر السبب بقوله : «اعتقد ان الاجتماع سيكون بسبب عقد مؤتمر

علمي للمركز» .

لم يتفق زميلان على سبب واحد لهذه الدعوة ..

كان (ص) يعتقد ان الاجتماع كان بسبب قرب قدوم اول زيارة لوفد اجنبي من الخبراء ، ردا على زيارتهم منذ اربعة شهور ..

اتضح ان ايا منهم لم يضع الوقت سدىً . جرت اتصالات مستمرة مع اصحاب النفوذ واصحاب المناصب العليا ، كما تمت اتصالات تليفونية مكثفة فيما بينهم مساء ، بل تزاور بعضهم في نفس الليلة ..

ثم نبت بينهم ظن ما ، كيف تولد ؟ ماالذي بعثه او اكده ؟ لاأحد يدري . وكيف سرى في نفوسهم في ذات الوقت تقريبا ، دون ان يفضفض به اي منهم للاخر ؟ ..

لاأحد يدري ..

كان الظن يدور حول تغيير المدير الحالي ، وامكانية اختيار اي منهم بديلا له هكذا ارتدى كل منهم مسوح المدير المرتقب ، ومن باب الاحتياط والحرص الوظيفي ، كان يعامل الاخرين ، حال اتصاله بأي منهم ، على انه المدير المنتظر ..

هل كان هذا الظن يرجع الى ماآلت اليه اوضاع المركز من إنهيار ، حتى اصبح التغيير هو المخرج المرتقب ؟ .. أم هي رغبة دفينة في أن يحل اي منهم محل المدير الحالي ، انتقاما لطول مامارس عليهم من تسلط ؟ .. أم هل اتخمت نفوس كل منهم وتشبعت ، ولم يعد ينقصهم سوى التطلع الى منصب المحرك الاعظم ؟

أهو سبب واحد ، ام هي مجموعة اسباب متشابكة تجمعت معا لتغذي هذا الظن ؟ ..

لاأحد يدري ..

* * *

في الصباح بكّر الجميع الى مكتب سيادة المدير قبل الميعاد ..

كان الباب مغلقا على غير العادة . وعندما كان احدهم يسأل السكرتيرة قبل دخوله كانت اجابتها التي ملت من طول تكرارها « دخل ومعه ثلاثة منذ اكثر من نصف ساعة »

وعندما دخل (ص) ، كما دخل الاخرون ، فوجئ ، كما فوجئوا بأن احد الثلاثة هو علي زكي ..

«ضقت ذرعا باتهاماتك ..»

هكذا بدأ المدير حديثه موجها اياه الى علي زكي ، دون ان يرحب بالداخلين الصامتين ، كدأبه دائما معهم ..

استمر يقول «واعطيتك اكثر من فرصة ، متحملا المسؤولية حرصا عليك ، ولكنك تجاوزت كل الحدود ..»

ثم ناظرا الى جمع الحاضرين : جمعتكم ليكون كل شئ امامكم ..

عندئذ ، عندئذ فقط .. انزاحت الغشاوة عنا ، عرفنا جميعا ـ تلقائيا ـ سبب الدعوة ، انه علي زكي في وجود اثنين من الرقابة الادارية ..

ثم طلب سيادة المدير ان يتحدث كل منا ردا على اتهامات علي زكي ، والتي يتضمنها الملف المغلق امام المحققين ..

لم نقرأها ، ولكننا ـ جميعا ـ ، دون استثناء ـ بحماس منقطع النظير ، صدقنا على كلمات سيادة المدير ، بل افشى بعضنا احاديث جانبية ، بينه وبين علي زكي ، كانت في مجملها تؤيد الرأي في انه قام بالتفرقة بيننا ، واتهاماته المستمرة لنا بعدم الامانة واستغلال السلطة ، وتجاوز بنود الصرف ، وابواب الميزانية ، واننا اصبحنا مراكز قوة .. وفي ذات الوقت برأنا سيادة المدير من الاتهامات المنسوبة اليه ، ودافعنا عنه دفاعا مستميتا ، واوضحنا مدى افلاس افكار علي زكي ، وكيف ان المشاريع قد ادخلت اصنافاً جديدة مثل الفراولة ، وفتحت بيوتا كثيرة ، وقاومت امراضا

عديدة ، وساهمت في التنمية ، وزيادة المحاصيل ، والتبادل العلمي ، وزودت المعامل بالامكانيات والاجهزة بالاضافة الى مباني المشاريع المتخصصة ، المنتشرة في ربوع البلاد ، علاوة على البرامج الزراعية والارشادية ..

أفاض كل منا في هذا الصدد ، كما اشاد كل منا باخلاص العاملين في المشاريع من اصغرهم الى اكبرهم ، ولم يغفل اي منا الاشادة بافضال السيد مدير المركز وخبراته ، التي صاحبت كل المشاريع ، واقتراحاته البناءة .. وايضا لم يغفل اي منا دور المؤسسة التي تطوعت من اجل البحث العلمي والتنمية الاقتصادية ..

كان مجمل الحديث الذي خرج من فم كل منا ادانه كاملة لعلي زكي .. والتمس البعض له العذر ، بأنه يمر بمراحل صعبة في حياته ، وببعض الظروف العائلية التي يتعرض لها اي انسان ، بالاضافة الى الضغوط الاقتصادية التي يعاني منها الجميع ..

ورغم اننا اجمعنا على مايتمتع به من مؤهلات ومكانه علمية ، الا اننا جميعا ـ ادناه ..

* * *

قام سيادة المدير بجهد كبير في انهاء الموقف ، بل تحيرنا تماما من حديثه الذي وقف به الى جوار علي زكي ، موضحا في نفس الوقت غيرته على البحث العلمي ، وخوفه على الوطن ، واخيرا ذيل حديثه بقوله : انا متنازل عن اتهاماته لاشخاصنا جميعا نيابة عنكم .. لكني بالطبع لااستطيع ان اتنازل بحكم منصبي عن تجاوزاته الادارية .. والمالية ..

ونقل الرشاشات .. صحيح انه لايوجد غير سيارتين ، احداهما لاستعمال سيادة المدير ، والاخرى مشغولة في طلب السلع التموينية للجمعية الفئوية للمركز .. وصحيح ان لدى معظم الاقسام سيارات المشاريع ، وسيارات شركات المبيدات ، لكن هذا مايرفضه علي زكي ..

* * *

لم ندرِ شيئا عن نتيجة التحقيق ..

لم يحاول احدنا السؤال عنها ، ولم يبادر احد منا بالسؤال عليه ..

مرت عدة ايام قبل ان نرى علي زكي مرة اخرى .. لم يتحدث معنا ، كما تعودنا منه ، كما انه لم يتعمد زيارتنا في مكاتبنا ، او ايقافنا عند المرور ، كما كان يفعل سابقا ..

* * *

(١٦)

جمّد الوزير كل المشروعات ..

اعلن بدء مرحلة انتقالية ، لحين تطبيق برامج الخطة القومية ومشروعاتها ..

* * *

لم نعد نتقابل في مكتب سيادة المدير ، بل كنا نتقابل مصادفة في مكاتب الوزارة بعيدا عن المركز – احترف بعضنا السفر الى الخارج في مأموريات مهنية . وقام بعضنا الاخر بتقديم تقارير في (التافهة والمليانة) الى مكاتب المسؤولين بالوزارة مباشرة دون عرضها على رئاسات المركز ..

كان مدير المركز مازال يباشر اختصاصاته . كان يحيل علينا مذكرات بعض العاملين في المركز بخصوص زيادة المرتبات او الحوافز او الاصلاحات الوظيفية ، او ما اسماه البعض «تنقية الجو العلمي» .. كنا نتفنن في تفنيدها ، وجعل كاتبيها يبدون من الحاقدين المخربين ، وكانت وجهة نظرنا جميعا انها امور تحرج موقف الكبار ..

كما خرجت بعض التقارير معتمدة باجماع رؤساء الاقسام عن مشكلات الارز والكمثرى وغيرها ، تفيد ان الاعلام قد ضخم حجمها ، وهي مشكلات

محدودة .

وحرصنا - فوق كل شئ - على الظهور في جميع المناسبات الاعلامية ..

هكذا كنا نحاول ان نشغل اوقات عملنا اوفراغنا ، حتى ينقشع ضباب الانتظار ، وندخل مرحلة تطبيق البرامج المنتظرة ..

* * *

لم نصدق تلك الشائعة التي خرجت علينا فجأة دون مقدمات .. حدث ذلك صباح السبت ، ورغم اننا كنا مجتمعين في احدى اللجان مساء الخميس ، الا ان بوادر هذه الشائعة لم تظهر الاصباح السبت ..

علمنا ان مديرا جديدا تسلم عمله بالمركز .. استدعاه سيادة الوزير مساء الخميس ، وصدر القرار الوزاري اللازم صبح اليوم ..

كان طبيعيا ان نتقابل ونحن في طريقنا فرادى الى مكتب سيادة مدير المركز كان طبيعيا ان نرتبك بمجرد دخول مكتبه . فالمدير السابق يجلس امام المكتب ، والمدير الجديد يتصدر مكتبه .. الموقف حرج والكلمات لاتسعف ، فماذا نقول للقديم وماذا نقول للجديد ، الذي كانت نظرتنا اليه دائما ، انه اقل منا بكثير ، بل كثيرا ما سخرنا منه بسبب مواقفه غير الدبلوماسية ؟ ..

وكما دخلنا فرادى ، خرجنا فرادى ..

كان أمل كل منا ان يصبح مديرا للمركز ، وكنا نشعر باحقية كل منا في هذا المنصب ..

لم يتصل بعضنا ببعض .. انتظم كل منا في معمله عدة ايام . انصتنا الى علي زكي الذي كان يكرر مرارا : لافائدة من تغيير الاشخاص ، دون تغير القواعد اوالنظم ، وتغيير النفوس ، حتى نرجع الى الامانة العلمية ونتحملها ، ونتكاتف معا ، وننسى مامضى .. على المسؤولين تهيئة الجو العملي والعلمي المناسب وعلينا التفرغ لعملنا فكرا وبحثا ..

استمعنا اليه ، ليس عن ايمان كامل بما يقول ، ولكن لانه ليس هناك بديلا نسلكه ، ولم نعرف بعد اي درب نطرقه ..

اخذنا نعاود التردد على مكتب سيادة المدير نلتمس اخبار المشاريع القومية ونظامها والتشكيلات الجديدة لها ، كما اننا كنا ننصت لسيادته وهو يدعونا ان نتكاتف وان نركز جهودنا على البحث العلمي ، وان نهتم بتفريخ اجيال جديدة صالحة من الباحثين ، وكان يوجز نصائحه في نهاية كل جلسة ويبلورها بأن هذا يدفع عجلة التنمية ويبعث شرارة الخلق في البحث العلمي ..

وهل كنا نملك الا ان ننصت له صاغرين ، رغم اننا حفظنا ذات الكلمات من طول تكرارها ، حتى لم تعد تثير فينا اي حمية ؟ ..

* * *

اصبح (ص) كثير البقاء في بيته ، بل كان يمكث فيه احيانا يوما كاملا أو يومين دون أن يخرج مخالفا بذلك ماسبق ان ارساه من قواعد في السنوات الاخيرة ، مما جعل زوجته عصبية المزاج ، فقد تعودت ان تمارس حريتها صباحا في زيارات للاهل والصديقات خلال وجود الاطفال في المدارس ، اما الان فكيف تخرج ، تنطلق ، تتحرك وهناك هذا الوجود الصامت ، اللامبالي ، رابض دائما امامها .. صحيح انه يراقب كل مايحدث في البيت ، ويتتبع حركاتها ، حتى يكاد يحصيها ، لكنه لايشارك ابدا برأي او حتى مجرد كلمة معها او ضدها ..

كان يزعجها بقاؤه في المنزل ، فاذا سألت لماذا لايذهب الى العمل ، تعلل بصداع تارة ، او ارهاق تارة اخرى ، ودائما يجد عذراً ما يزجي به فراغ الرد .. فكانت تبتلع تذمرها وتسكت .. صحيح انها التمست له العذر بأن مشاغله تقلصت بحد رهيب بعد توقف المشاريع ، لكنها لم تنسَ ابدا تلك الايام السعيدة ، بكل خيراتها التي مازالت ترتع في نعيمها الى الان ..

حتى اطفاله ضايقهم وجوده الثابت الصامت ، لكنهم كانوا قد اعتادوا غيابه من قبل ، فكانوا يرجعون في كل امورهم الى امهم ، يستأذنونها ، يطلبون منها أو يبثونها شكاويهم .. ورغم ان هذا كان يجري امامه ، الا ان هذا لم يبدُ انه يثيره البتة ..

وكما فقد الاهتمام باسرته الحالية ، لم يرغب في زيارة اسرته الاصلية .. صحيح ان أباه لم تتحسن صحته كثيرا عن ذي قبل ، ربما بفعل المرض المزمن او الشيخوخة ، الا انه اصبح موقنا ان كل حي ، هو مريض في ذات الوقت ولكن بمرض من نوع مختلف .. وايقن عندئذ صدق ماسبق ان قرأه من ان الاكتئاب هو مرض العصر ..

حاول ان يبعث علاقاته القديمة مع سعاد او نجوى .. فعلم ان سعاد تعمل في احدى الشركات الوطنية في مجال الامن الغذائي كسكرتيرة لرئيس مجلس الادارة ، وان نجوى تعمل في ادارة العلاقات الخارجية بمكتب الاتصال بالهيئات الاجنبية ، وانها مطلقة منذ شهر ، وانها انجبت طفلة صغيرة ، وانها في طريقها للزواج من مديرها المتزوج لتسافر معه الى الخارج ..

كما لم يجد اكرم الى جواره بعد ان سافر في منحة لمدة عامين بالخارج بعد انتهائه من رسالة الدكتوراه ..

سعى عدة مرات لمقابلة الدكتور مرسي مرزوق ، الذي اصبح وكيلا للكلية لشؤون الدراسات العليا ، لكنه توقف اخيرا عن المحاولة ، بعد ان اكتشف عبث محاولته ، بعد تكرار اعتذار السكرتيرة أو هو ـ عند اتصاله تليفونيا به ـ بالتعلل بكثرة الانشغال في الاجتماعات واللجان ..

كانت هذه الفترات كافية ، لكي يجتر كل حياته الماضية ، بدقائق تفاصيلها ، فاكتشف انه هجر كثيراً من معارفه القدماء سواء منهم الاقارب او الزملاء ، وحين حاول الاتصال بهم ، اكتشف سفر بعضهم ، واختفاء

بعضهم الاخر ـ انشغالا ـ باعمالهم الخاصة ..

* * *

واخيرا قرَّ عزمه ان يقاوم هذه الحالة التي يعانيها ، وان يدفن همومه ثانية في العمل .. صحيح انه اصبح يذهب بانتظام ثانية للعمل ، الاانه لم يجد لديه القدرة على استعمال المجهر ، او متابعة نقـاش علمي لاكثر من دقائق معدودة .. وصحيـح انه قنـع ان يقوم بـواجبه الاشـرافي كرئيس للقسم ، لكنه اكتشف ان من حوله لايحتاجونه الا لو فرض رأيـا ما ، او تدخل ، وهو ما لم يفعل .. وصحيح ايضا انه كان يتابع عن كثب اجتهاد ايمن وتفاني ثريا في عملهما ، الاانه اكتشف انهما على علاقة وطيدة بالمدير الجديد ، لانهما كانا على علاقة علمية سابقة به ، حين كان باحثا مغمورا ، وكان (ص) مشهورا ، فكانا ينشدان عنده المشورة التي يفتقدانها مع (ص) وكان الرجل يساعدهما باخلاص .. صحيح انه لم يحاول الاتصـال بعلي زكي ، الاان اخباره وصلته ، وكان آخرها شائعة عن قرب ترشيحه لمنصب نائب المدير .. وصحيح ايضا انه لم يكن يجري وراء اخبار المركز ، لكن اخبار التغييرات المرتقبة في اقسام المركز كانت تتواتر على مسامعه بأشكال مختلفة ..

* * *

حملق (ص) في وجه عم رضوان القابع في ركنه راضيا ، قانعا بما ستأتي به الايام ، عندئذ تذكر وجه العجوز المكفهر الغاضب الذي جاوره يوما في احدى الاشارات وهو يزمجر وحيدا في سيارته ثائرا لسبب ما ..

تاهت نظراته في عمق المكان ، كمن يستغيث ..

لاشك ان المشاريع ستعود .. انها مسألة وقت ، والا فلمن ستؤول تلك المباني الشامخة الخاصة بهذه المشاريع ، والمؤسسات التي ما زالت تحتل طوابق باكملها في عمارات ضخمة ؟ ، وماذا سيحدث للبرامج التي لم تتم ،

وهذا الكم الهائل من الخبراء الذين لم يغادروا البلاد بعد ؟ !

بالقطع ستعود المشاريع ثانية ، عندئذ نبعث من هذا الموت المؤقت الذي نعانيه ، ونعود عمالقة نمارس سلطاتنا ، كما كنا ...

بالقطع ستعود المشاريع ..

بالقطع ستعود ..

كتب للمؤلف :

- قطار الحادية عشرة - مجموعة قصص : دار المعارف بمصر ١٩٨٤
- الهجرة نحو المدن القديمة - المجلس الاعلى للثقافة ١٩٨٤ (رواية)
- لو تظهر الشمس - مجموعة قصص : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥
- تحت الطبع :

جاريسيا ماركيز وافول الدكتاتورية - دراسة طويلة في رواية «خريف البطريك»

رقم الايداع ٦٦٧ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة